

الخلاصة في تدبر سورة البقرة

تأليف

محمد بن علي بن جميل المطري

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آتِهَا﴾ ألف لام ميم، وسائر حروف الهجاء في أوائل بعض السور الله أعلم بمبراده منها، وقيل: هي لتحدي الناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي هو مؤلف من هذه الحروف العربية. ﴿ذَلِكَ أَنْتَ لَدَارِئٌ فِيهِ﴾ القرآن العظيم لا شك في تنزيهه من الله سبحانه، فهو كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك في صدق أخباره، وعدل أحكامه. ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتقي من يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بامتنال أوامره واجتناب نواهيه، فالمتقون هم المنتفعون بهدايات القرآن الكريم، وهي الدلالات المبينة لما تضمنه القرآن الكريم من علوم وإرشادات تبين الحق من الباطل، وتوصل لكل خير، وتمنع من كل شر، فالمتقون يهتدون لما تضمنه القرآن الكريم من علم نافع، وعمل صالح، منطوقاً ومفهوماً، مما هو ظاهر أو مما يُستنبط منه بعد التدبر والتأمل. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وصف الله المتقين بأنهم يُصدِّقون بكل ما غاب عن أعينهم مما أخبر الله به ورسوله من القيامة والحساب والجنة والنار وغير ذلك، ويدخل في الإيمان بالغيب: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهي أركان الإيمان الستة، والإيمان هو التصديق والإقرار بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة دون ما سواه، والإيمان اعتقاد وقول وعمل. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْجِبَالِ وَالْحِجَابِ﴾ ومن صفات المتقين أنهم يقيمون الصلاة الفريضة والنافلة، وإقامة الصلاة أن يأتي بها المصلي بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، وأن يكملها ظاهراً وباطناً بإخلاص وخشوع. ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُغْفِرُونَ﴾ ومن صفات المتقين أنهم يتصدقون ببعض ما رزقهم الله، وذلك يشمل الزكاة الواجبة والصدقات المستحبة. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ﴾ يشمل الإيمان بالقرآن الكريم والسنة النبوية التي هي بيان للقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يبين للناس كتاب الله بسنته القولية والفعلية، وقد أمرنا الله في آيات كثيرة بطاعته وطاعة رسوله، فطاعة الله باتباع القرآن، وطاعة الرسول باتباع السنة. ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب السابقة كالطورا والإنجيل. ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ اليقين: العلم الثابت الذي لا شك فيه. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المتصفون بهذه الصفات هم المهتدون باتباع شريعة الله، المفلحون أي: الفائزون بالخلود في الجنة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ستروا وجحدوا ما يجب الإيمان به، والكفر نوعان: كفر أصلي، وكفر ردة، ويكون الكفر والردة عن الإسلام بالاعتقاد أو الشك أو القول أو الفعل أو ترك الفعل، سواء كان ذلك اعتقاداً أو عناداً مع التصديق أو استهزاءً ولعباً، مثال الكفر الاعتقادي أن ينكر وجود الخالق أو يعتقد كذب القرآن أو يُكذِّب الرسول صلى الله عليه وسلم أو يُكذِّب بالبعث بعد الموت أو يعتقد صحة دين الكفار من اليهود والنصارى والبوذيين وغيرهم أو يُنكر وجوب الصلوات الخمس أو

يكره شيئاً من دين الله وإن عمل به، أو يعتقد عدم وجوب الحكم بما أنزل الله، ومثال الكفر بالشك أن يشك في وجود الخالق أو صحة القرآن أو صدق النبي صلى الله عليه وسلم أو يشك في البعث بعد الموت، ومثال الكفر القولي أن يشرك بالله بدعاء غيره أو يستهزئ بالله ورسوله وآياته أو يسب الله ورسوله أو يُجَلِّل شيئاً محرماً بالنص والإجماع أو يُحَرِّم شيئاً حلالاً بالنص والإجماع، حتى لو كان إنكاره بقوله عناداً أو استهزاءً مع تصديقه بالحق، ومثال الكفر الفعلي أن يُلقِي المصحف الشريف في القاذورات أو يسجد لصنم أو يستعمل السحر باستخدام الشياطين، ومثال الكفر بالترك أن يمتنع عن الصلاة، حتى وإن كان مصدقاً بالله وباليوم الآخر، كما امتنع إبليس عن امتثال أمر الله بالسجود لآدم فكفر، مع كونه مصدقاً بالله وباليوم الآخر، أو يترك تحكيم الشريعة الإسلامية، ويعرض عن الحكم بما أنزل الله سبحانه. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) يعني مستو عندهم أعلمتهم بما تحذروهم منه أم لم تُعلمهم لا يؤمنون، والمراد أن أكثر الكافرين لا يؤمنون كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، ومن الكافرين من يؤمن. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع الله على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر، ولا يدخل إليها الإيمان، والقلب سمي قلباً لتقلبه بالخواطر والتفكير، وهو محل العلم والعقل والنية. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي: وطبع الله على سمعهم، فلا ينتفعون بما يسمعون، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصفات: ١٣]. ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ أي: وجعل على أبصارهم غطاء، فهم لا ينتفعون بما يرون من آيات الله الكونية بسبب كفرهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب إيصال الألم حالاً بعد حال. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) الناس والإنس هم البشر، والمراد ببعض الناس المنافقون، وهم الذين يُظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر. واليوم الآخر يوم القيامة، سُمِّي بذلك لأنه يأتي بعد انقضاء أيام الدنيا. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) أي: يُظهرون غير ما في قلوبهم، ولا يعلمون أنهم في الحقيقة يخدعون أنفسهم. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ في قلوبهم شك ونفاق وحب الشهوات المحرمة، فزادهم الله ضلالاً كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما كانوا يكذبون ﴿عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ مَّوجِعٌ﴾ بسبب ما كانوا يكذبون، الكذب هو الإخبار بما يخالف الواقع، وفي قراءة: ﴿يُكذِّبُونَ﴾: والتكذيب نسبة المخير إلى الكذب، فمن صفات المنافقين: قول الكذب، والتكذيب بالحق. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) إذا قال المؤمنون للمنافقين: لا تُفسدوا في الأرض

بالكفر والمعاصي والظلم وموالاتة الكافرين، قال المنافقون: إنما نحن مصلحون، والإصلاح تغيير الفساد إلى استقامة الحال في أمور الدين والدنيا. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (١٣) من صفات المنافقين الإفساد في أمور الدين والدنيا، ولا يعلمون أنهم مفسدون، ويظنون ما يعملونه من فسادٍ إصلاحًا وإن كان فيه تغييرٌ الإسلام وتشكيكُ الناس في الحق وسفك الدماء ونشر المنكرات. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ إذا قيل للمنافقين: صدّقوا بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم كما آمن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان، واتبعوا سبيلهم في فهم القرآن والسنة والعمل بطاعة الله وشرعه. ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (١٤) السفهاء جمع سفيه، وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، فالمنافقون يعتقدون هذا في الصحابة ومن اتبعهم من علماء الأمة وصالحيتها، فالمنافقون يحتقروهم، ولا يريدون أن يؤمنوا كما يؤمنهم، وهم في الحقيقة السفهاء، ولكنهم لا يعلمون الدين الحق الذي رضي الله لعباده. ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ اللقاء الاجتماع. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَعْبُدُكَ أَيُّهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إذا انفرد المنافقون مع زعمائهم المضلين، والشيطان كل عاتٍ متمردٍ من الجن والإنس، والمراد هنا شياطين الإنس. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٥) ساخرون، فمن صفات المنافقين الاستهزاء بالصالحين. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ الاستهزاء: إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا وهو يريد أن يسيء إليه باطنًا، وهو بمعنى الخداع والمكر والسخرية، فيُشرع أن يُعامل المنافقون معاملة المسلمين في الظاهر، وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، فتجري عليهم أحكام النكاح والمواثيق ونحو ذلك مثل غيرهم من المسلمين، ﴿وَيُنذِرُهُمْ فِي طُعْنَانِهِمْ﴾ أي: يزيدهم الله في كفرهم وضلالهم، ﴿بِعَمَّهُونَ﴾ (١٥) العمّة: الحيرة والتردد، فالمنافقون في حيرتهم يترددون، لا يجدون إلى الهداية سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم، بسبب سوء نياتهم، وفسقهم وظلمهم، قال الله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ﴾ اشتروا: استبدلوا، والباء تدخل في الشراء على المتروك، فالمنافقون تركوا الهدى رغبة في الضلالة، كما يرغب المشتري في السلعة، فيترك ثمنها للبائع ليأخذها. ﴿فَمَا رِيحَتِ بِحَرِّهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦) الريح الزيادة على رأس المال، فتجارة المنافقين خاسرة؛ لأنهم اشتروا الدنيا الفانية بالآخرة الباقية. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: شبه المنافقين كإنسان أوقد نارًا في مكان مظلم، فهذا وصفُ المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا، واشتروا الضلالة بعد الهدى، فلما أبصر المنافق ما حوله بنور الإسلام ارتد فصار في مكان مظلم بعد أن كان مبصرًا. ﴿وَرَزَقَهُمْ فِي ظُلْمَتٍ لَّا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧) ترك بمعنى خلى، والظلمات جمع ظلمة وهي عدم النور، فهؤلاء المنافقون خذلهم الله حين استحبووا الضلالة وقدّموها على الهدى. ﴿صُمُّ بِصُرَّتِكُمْ عُمَىٰ﴾ صُمُّ

جمع أصم، والصمم آفة في الأذن تمنع من السمع، بُكِّم جمع أبكم، وهو الذي يولد أخرس لا يتكلم، عُمِّي جمع أعمى، والعمى آفة في العين مانعة من إدراك المبصر، ويطلق العمى أيضاً على عمى القلب، والمعنى: المنافقون صُمُّوا عن استماع الحق، بُكِّموا عن التكلم به، عُمِّيوا عن إِبصاره، فلا تنفعهم المواعظ والعبر، ولا يتفكرون فيما يسمعون ويقرءون من آيات القرآن والسُّنة، ولا فيما يرون من آيات الله الكونية، كما قال تعالى: { هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا } [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه: { وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف: ١٠٥]، وقال عز وجل: { وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ } [الصفات: ١٣، ١٤]. ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) إلى الحق؛ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فغالب المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم وتركوا الحق عن علم لا عن جهل لا يرجعون إلى الإيمان والعمل الصالح. ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ أي: مطر، مشتق من صاب يصوب إذا نزل من السماء، والسماء في اللغة: كل ما علاك فأظلك، والمراد بالسماء هنا السحاب، هذا مثل آخر للمنافقين، يعني: كأصحاب مطرٍ شديد في سفر، في ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، والرعد صوتٌ شديدٌ يُسمع في السحاب عند نزول المطر، والبرق نورٌ يُرى في السحاب ولا يثبت. ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْتِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: يضعون أصابعهم في آذانهم بسبب الصواعق، والصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد، وقد تقتل أو تحرق ما أتت عليه. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الحذر الخوف، والموت زوال الحياة، وهو مفارقة الروح الجسد، والجسد بعد الموت يفنى، والروح تبقى، ويوم القيامة يُعيد الله الأجساد بقدرته، وترجع الأرواح إليها، وهذا المثل يبين الله به حال المنافقين عند سماع القرآن والمواعظ، فهم يكرهون سماع الحق كما يكرهون الموت، ويجعلون الاستقامة على شرع الله كالموت، فهم لا يريدون طاعة الله كما لا يريدون الموت، قيل: وجه التشبيه أن المطر مثلٌ للقرآن الذي تحيا به القلوب، والظلمات مثلٌ لما في القرآن من الإشكال على المنافقين، فبعض الآيات القرآنية لا يفهمونها، وتكون سبباً لكفرهم وشكهم، كما قال تعالى: { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت: ٤٤]، وقال سبحانه: { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء: ٨٢]، والرعد مثلٌ لما فيه من الوعيد والزجر لهم، والبرق مثلٌ لما فيه من البراهين الواضحة، ضرب الله في هذه الآية مثل المنافقين الذين نفاقهم عن جهل لا عن علم بأصحاب المطر الشديد، وإذا أضاء لهم البرق مشوا في ضوئه، وإذا أظلم وفقوا، كما أن المنافقين إذا كان القرآن موافقاً لأهوائهم عملوا به، كأحكام النكاح والمواثيق وآيات حسن

الأخلاق، وإذا كان غير موافق لأهوائهم وقفوا وتأخروا، ولم يعملوا به كالمحافظة على الصلوات في أوقاتها والجهاد في سبيل الله وترك المنكرات كالربا والتبرج والزنا وموالاة الكافرين. ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾﴾ الإحاطة الإحداق بالشيء من جميع جهاته، ومنه الحائط لإحاطته بما يدور عليه، ويستعمل في القدرة والعلم والإهلاك، ومن أسماء الله: المحيط بمعنى أنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وقهراً، فإحاطة الله بخلقه إحاطة علم وقدرة وقهر، والله مهلك الكافرين وإن أمهلهم. ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يكاد: يقرب ولم يفعل، والخطف أخذ الشيء بسرعة، والمراد: يقارب البرق أن يذهب بأبصارهم بسبب شدة لمعانه، والمراد بهذا المثل: أن نور القرآن - وهو براهينه - يكاد لشدة ضوئه يُعمي بصائر المنافقين، كما أن البرق الشديد النور يكاد يُعمي بصر ناظره. ﴿كَلَّمَا أَصَاةَ لَهُمْ مَسَافِرِهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أظلم أي: صار الموضوع مظلمًا، قاموا: وقفوا وثبتوا مكانهم، فكلما ظهر للمنافقين شيء يعجبهم من الإسلام استأنسوا به واتبعوه، وإذا عرضت لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين، قيل: المثل الأول للمنافقين الدعاة إلى النفاق الذين هم في جهل مركب، والمثل الثاني للمنافقين ذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ القدير من أسماء الله الحسنى، يتضمن صفة القدرة، فالله كامل القدرة، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [البروج: ١٦]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا أيها يا حرف نداء، ينادى بها القريب والبعيد، أي وصلة لنداء ما فيه أل، ها حرف تنبيه. ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الخلق الاختراع والإيجاد والإنشاء. ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وخلق الذين من قبلكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ لعل حرف توقع، يكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المكروه، ولا يستعمل إلا في الممكن. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الفراش: المهاد، أي: ذللها لكم وبسطها ولم يجعلها غليظة ولا ممتلئة بالصخور فلا تتمكنون من الاستقرار عليها ولا الانتفاع بها. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي: سقفاً مرفوعاً، فالسمااء بناء محكم شديد، وليست فضاء، والفضاء بين الأرض والسمااء، وللسمااء أبواب تُفْتَحُ وتُغْلَقُ، ويوم القيامة تتشقق وتنفطر، وهي سبع سماوات طباقاً، والنجوم زينة السمااء الدنيا، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك: ٥]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ المراد بالسمااء هنا السحاب، والباء للسببية، فماء المطر يخرج بسببه ثمرات الأشجار بقدرة الله. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أُنْدَادًا: أمثالاً ونظراء تجعلونهم شركاء لله في العبادة، وأنتم تعلمون أن الذي خلقكم وخلق السمااء والأرض وما فيهما هو الله وحده، فكما لا شريك له في الخلق لا شريك له في العبادة. ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم في شكٍ من القرآن الذي نزله الله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿فَأَنزَلْنَا سُورَةَ مِنَ مِثْلِهِ﴾ الإتيان المجيء،

والسورة قطعة من القرآن تامة كاملة، من مثله أي: مثل القرآن، والمماثلة تقع بأدنى مشابهة، فتحدى الله الناس أن يُنشئوا بكلامهم سورة مثل سورة من القرآن في كمال البلاغة والفصاحة والإعجاز. ﴿وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) وادعوا آهنتكم وأعاونكم ليعينوكم على المجيء بمثل سورة من القرآن إن كنتم صادقين أنه ليس كلام الله، وأنه كلام البشر. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: فاحذروا نار جهنم التي وقودها الناس من الكفار والمنافقين والمجرمين، والحجارة التي عُبدت من دون الله، وقيل: حجارة الكبريت، الوقود اسم لما يوقد به من الحطب وغيره، والوقود: الاشتعال. ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٤) أي: هُيئت جهنم للكافرين، فهي الآن مخلوقة، ويوم القيامة تُسَعَّرُ، ويجاء بها فيراها كل الناس. ﴿وَيَبَيِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أخبر المؤمنين خيراً يظهر أثره على البشرية، وهي ظاهر الجلد، والبشارة أول خبر يرد على الإنسان من خير أو شر، وأكثر استعماله في الخير. والعمل إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، والعمل الصالح هو الخالص من الرياء، المقيد بالسنة النبوية، فلا يكون العمل صالحاً إلا بهذين الشرطين: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، فإن كان العمل خالصاً لله ولم يكن موافقاً للسنة فهو بدعة، وإن كان العمل مقيداً بالسنة ولم يكن خالصاً لله فهو رياء لا يقبله الله. ﴿أَن لَّهُمْ جَنَّاتٌ جَمَعَ جَنَّةً، وهي في اللغة: البستان المستور بالأشجار، وكل شيء ستر شيئاً فقد أجنته، ومن ذلك: الجنة والجن والجنين والمجنون لأن عقله مستور. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها وقصورها، والأنهار جمع نهر، وجنة الآخرة فيها أنهار جارية من ماء ولبن وخمر وعسل. ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كلما أطمعوا فأكهه من تلك الجنات قالوا: هذا الذي رزقنا الله من قبل في الجنة. ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصورة ويختلف في الطعم واللذة، فنعيم الجنة لا يُمل. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض والغائط والبول والمخاط والقاذورات والروائح الكريهة والأخلاق السيئة. ﴿وَهُمْ فِيهَا خالدون﴾ (١٥) باقون في الجنة إلى الأبد، آمنون من انقطاع النعيم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَّا قَوْحَهَا﴾ الاستحياء والحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، ومحله الوجه ومنبعه من القلب، والحياء يمنع من قول أو فعل ما يُعاب، وصفة الحياء ثابتة لله سبحانه على ما يليق بجلاله وكماله، وليس كحياء المخلوقين، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لا يستحي أن يذكر شيئاً من الحق صغيراً أو كبيراً، وعدَّ بعض العلماء من أسماء الله الحسنى: الحَيُّ، وروي هذا الاسم في حديث مختلف في صحته. ومعنى يضرب أي: يذكر، ومثلاً أي: شَبَّهَا، ومعنى الآية: إن الله لا يستحي أن يبين الحق عبر التشبيه بأي شيء كائنًا ما كان، ولو كان المثل المذكور بعوضة، وهي واحد البعوض، وهي حشرة ذات

أجنحة تمتص دم الإنسان، تسمى النامس والناموس. ﴿فَمَا قَوْهَا﴾ قيل: في الكبر، وقيل: في الصغر، يطلق فوق على الأكثر والأقل، فهو من الأضداد، فالله يضرب ما شاء من الأمثال أي: يذكر في القرآن ما شاء من الأمثال التي تقرب المعاني إلى الأذهان، وتوضح الحق، ولو كان المثل المضروب بعوضة أو أكبر منها أو أصغر منها، فالمؤمنون يؤمنون بما يذكره الله من الأمثال في كتابه، ويعلمون معانيها، والكافرون يعترضون عليها، ولا يفهمونها، والله يُضل بتلك الأمثال من يشاء من الكافرين والمنافقين، ويهدي بها من يشاء من المؤمنين. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الحق الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وضده الباطل، وهو المضمحل الزائل. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ يَهْدَانَا مَثَلًا﴾ الإرادة صفة لله سبحانه، وهي نوعان: إرادة كونية بمعنى المشيئة، وإرادة شرعية بمعنى المحبة، فالإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع مثل إرادة الله بعباده اليُسر، وإرادته أن يعبدته الناس، والإرادة الكونية لا بد من وقوعها سواء كانت مما يحبه الله أو لا يحبه، مثل إرادة الله انتصار المسلمين أو انتصار الكافرين، ومثل هداية الله من يشاء بفضله، وإضلاله من يشاء بعدله. ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهٖ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهٖ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن أمر الله وطاعته، وأعظم الفسق الشرك بالله، ثم كبائر الذنوب. ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق العهد المؤكد باليمين، والنقض رد الشيء إلى ما كان عليه، فنقض البناء هدمه، ونقض العهد إبطاله ونكثه. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا ءَامَرَ اللَّهُ بِهٖ أَنْ يُوصَلَ﴾ القطع فصل الشيء عن الشيء، والمراد قطع الصلاة وقطع الأرحام ونحو ذلك. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ من صفات الفاسقين أنهم يفسدون في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ الخسارة النقصان والهلاك، فالفاسقون هم الخاسرون الجنة ورضا الله، وسيتركون بعد موتهم الدنيا، ويخسرون كل ما جمعه فيها، ونهايتهم جهنم. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: كنتم أمواتًا في العدم فأحياكم الله في الدنيا ثم يميتكم عند انتهاء أعماركم ثم يحييكم بالبعث بعد الموت، ثم يُجمعون وتُرجعون إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء، فإلى الله المصير، وإليه المنتهى والمستقر. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَآ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ أي: ارتفع وقصد إلى بنائها، ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوٰتٍ﴾ التسوية التقويم والتعديل، والمراد خَلَقَ السماوات السبع بإحكام وإتقان، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ العليم من أسماء الله الحسنى، فالله يعلم كل شيء تفصيلاً، يعلم ما مضى وما سيأتي، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسع كل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾ كل ما ورد في القرآن {وإذ} التقدير: واذكر، فمعنى هذه الآية: واذكر حين قال ربك. والملائكة مخلوقون من نور، لهم أجنحة، يعبدون الله في كل حين، ويفعلون ما يأمرهم بلا تأخير.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الخليفة هو الذي يقوم مقام غيره في الأمر الذي جُعِلَ إليه، وذرية آدم يخلف بعضهم بعضاً في الأرض جيلاً بعد جيل. ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أعلم الله الملائكة أن البشر سيكون منهم فساد في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يصبها ويسيلها بالقتل، ﴿وَنَحْنُ نُسَيِّئُ بِيَمِينِكَ﴾ التسبيح تنزيه الله عن النقائص التي يصفه بها المشركون والجاهلون، والمعنى: نصلي لك، ونزهدك ونحمدك شكراً وثناءً. ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التقديس: التطهير والتعظيم، ومنه بيت المقدس، والأرض المقدسة، والمعنى: ونحن نُطَهِّرُ دِكْرَكَ عما لا يليق بك ونُعْظِمُكَ. ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالله يعلم أنه لن يكون جميع البشر مفسدين في الأرض، بل سيكون منهم صالحون، يعبدون الله في السراء والضراء، ويحسنون إلى عباده، وهم الأنبياء وأتباعهم الصالحون. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ آدم هو أبو البشر، وأول نبي عليه الصلاة والسلام، علَّمه الله أسماء كل شيء، فأى شيء يراه يعرف اسمه. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ عرض الشيء إظهاره، فالله سبحانه أظهر بقدرته المسميات على الملائكة، وأمرهم أن يجربوه بأسمائها على وجه التعجيز؛ ليظهر لهم ما اختص به آدم بالعلم بجميع المسميات، وأنه ليس كما ظنوا لا يكون فيه خير، فعجزوا عن معرفة أسمائها، وعرفها آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ سبحانك تنزيهٌ لله، والحكيم من الأسماء الحسنى، وله ثلاثة معان: الأول: حكيم في خلقه وفي شرعه وفي قدره. الثاني: حكيم بمعنى محكم ومتقن للأشياء التي يخلقها أو يُشَرِّعُهَا أو يُقَدِّرُهَا، فلا خلل في خلقه ولا في شرعه ولا في تدييره. الثالث: حكيم بمعنى حاكم. ﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تبدون: تُظهِرُونَ، تكتمون: تُخْفُونَ. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ نون الجمع للتعظيم، وكان الرئيس والكبير من العرب إذا أخبر عن نفسه يقول: قلنا وفعلنا وسنفعل، لعلمه بأن أتباعه يقولون كقوله، ويفعلون ما يأمرهم بفعله. ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ السجود وضع الجبهة على الأرض، ويطلق على التذلل والخضوع، وسجود الملائكة لآدم سجود تحية وإكرام وتشريف، إظهاراً لفضله، لا عبادة له، بل عبادة لله الذي أمرهم بالسجود لآدم فأطاعوه، ومثل ذلك طواف المسلمين حول الكعبة، ليس عبادة لها، بل عبادة لله الذي أمرهم بالطواف بها. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ إبليس مخلوق من النار، وهو أبو الجن، وكان يعبد الله مع الملائكة فامتنع عن السجود لآدم مع الملائكة، وتكبر عن طاعة الله بالسجود لآدم، وسأل الله أن يمهلَه ليضل عباده، فجعله الله وذريته فتنة للعباد، وحذرهم من شره ووساوسه، ويسمى إبليس الشيطان، وذريته منهم جنُّ شياطينُ كفرة، ومنهم جنُّ مسلمون صالحون. ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وصار من الكافرين، (كان) تأتي بمعنى

صار كما في قوله تعالى: { فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [هود: ٤٣]، وقيل: المعنى: وكان إبليس حين أبى السجود من الكافرين حينئذ، وقيل: كان من الكافرين في علم الله. ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الزوج يطلق على الأنتى والذكر، هذا الأفصح في اللغة، ويصح أن يقال للأنتى: زوجة، والمراد بالجنة هنا الجنة التي يدخلها المؤمنون في الآخرة، وعلى هذا أكثر العلماء والمفسرين. ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: كثيراً واسعاً بلا عناء من أي مكان فيها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لا دليل على بيان نوع هذه الشجرة، ولا حاجة لنا إلى معرفتها، نهاهما الله عن الاقتراب منها، ففيه سد الذرائع، والبعد عن أماكن الفتنة، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فتصيرا من الظالمين، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وأخذ المرء ما ليس له، ومنع الحق عن مستحقه، ويطلق الظلم على الشرك وعلى النقص، كما قال تعالى: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣]، وقال سبحانه: { كَلْنَا الْجِنَّتَيْنِ أَنْتَ أَكْلَاهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف: ٣٣]. ﴿فَأَرَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنَّا﴾ أي: استرلهما عن الجنة أو بسبب الشجرة، والزلل عثور القدم، والزلل في الرأي الخطأ، والمراد أن الشيطان أوقع آدم وحواء في الخطيئة ليبعدهما عن الجنة بسبب الشجرة. ﴿فَأَفْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الهبوط الانحطاط من علو إلى سفلى، ويطلق على الدخول والخروج، فهو من الأضداد، وبعض يطلق على الجزء ويقابله كل، والمراد آدم وحواء والشيطان، فلا تزال العداوة بين الإنس بعضهم بعضاً، وبين الإنس والشياطين، والعداوة اختلاف القلوب، والفرح بما يسوء الآخر، وكراهة ما يسره، والعدو يطلق على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿وَلَوْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار وإقامة، ﴿وَمَنْعُ الْإِجِينِ﴾ المتاع ما يحصل للإنسان من عرض الدنيا من انتفاع واستمتاع كالزاد والنعيم واللذات، ومتاع الدنيا إلى أجل ينتهي، وهو وقت انتهاء الأعمار. ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي استقبل وقبل وأخذ، وهذه الكلمات هي المذكورة في قوله تعالى: { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣]. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التواب من الأسماء الحسنى، فالله يتوب على عباده، والتواب من الناس التائب المكثّر من التوبة، وأصل التوبة الرجوع، وهي من العبد رجوع وإقلاع عن الذنب، ومن الله قبول ورحمة، والله يتوب على من تاب من عباده، ويوفق من شاء منهم للتوبة، ويقبل التوبة من عباده في الدنيا من أي ذنب كان، ولو من الشرك والكفر، أما في الآخرة فلا يغفر الشرك، ويغفر ما دونه لمن يشاء. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هدى الله هو الكتاب الذي ينزله على رسوله، والخوف توقع مكروه في المستقبل، والحزن يكون على شر وقع أو خير فات في الماضي. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آيات الله تعم الآيات الشرعية والآيات الكونية ومعجزات الأنبياء،

وأصحاب النار هم الكافرون الملازمون لها على الدوام. ﴿يَبْتَغِي إِسْرَائِيلُ﴾ إسرائيل هو النبي يعقوب عليه الصلاة والسلام، ﴿اذْكُرُوا﴾ أي: تنبهوا ولا تنسوا، ﴿يَعْتَبِرْ أَلَيْحَ أَنْعَمْتَ عَلَيْكَ﴾ النعمة اسم للشيء المنعم به، ونعم الله دينية ودينية، ظاهرة وباطنة، عامة وخاصة، والواجب تذكّر النعم بالقلب، وذكرها باللسان، وشكر الله عليها بالقول والعمل، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الوفاء تمام الشيء، وعهد الله كل ما أوصى به عباده، يعني: أدوا عهد الله وافيًا تامًا، ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾، تفسير هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، فما وعد الله به عباده المؤمنين من خير الدنيا والآخرة لا يكون إلا لمن تمسك بشرعه وعمل بطاعته، ومن ذلك النصر والتمكين في الدنيا، والمغفرة ودخول الجنة في الآخرة، ﴿وَإِنِّي فَأَرْسِلُكُمْ فِي الْخِزْيَانِ﴾ خافون. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ بِمَالٍ يُرْزَقُ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: آمنوا بالقرآن الكريم، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ موافقًا للتوراة لا يخالفها في إثبات التوحيد والإيمان بالرسول والبعث والحساب والجزاء والأخلاق ونحو ذلك، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَكْفَارًا﴾ أي: أول فريق جاحد بالقرآن وبالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو متاع الدنيا، ومهما كان كثيرًا فهو في الحقيقة قليل زائل، والآيات العلامات، وتُطلق على النعم، وعلى المعجزات، وعلى المخلوقات، وهي الآيات الكونية، وتطلق على آيات الكتب التي أنزلها الله على رسوله، مثل آيات التوراة وآيات القرآن، والتمن هو العوض المبذول في مقابلة المبيع، ويدخل في الآية علماء السوء الذين يكتمون ما بينه الله في كتابه من أجل الحصول على متاع الدنيا الفانية، ﴿وَإِنِّي فَأَقْفُونَ﴾ أمر الله علماء اليهود أن يتقوا الله وحده، وأن لا يقدموا متاع الدنيا الفانية على الإيمان بالحق وبيانه للخلق. ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ اللبس الخلط، والمعنى: لا تخلطوا الحق بالباطل تزيينًا للباطل، وتنفييرًا من الحق، والآية عامة تشمل هذه الأمة، فمن خلط الحق بالباطل، وكتّم الحق، فقد تشبه بعلماء اليهود. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ الركوع له معنيان: الأول: الانحناء، والثاني: الخضوع، وفي الآية حث على صلاة الجماعة ووجوبها أو تأكيد استحبابها. ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ البر: اسم جامع لكل خير، ويُطلق على الدين والطاعة، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم من الخير، والنسيان يطلق على الترك كما في هذه الآية، ويطلق على السهو الحادث بعد حصول العلم، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تقرأون التوراة، وسميت القراءة تلاوة لأن الآيات أو الكلمات أو الحروف يتلو بعضها بعضًا في الذكر، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ العاقل الذي يجبس نفسه ويردها عن هواها، وأصله المنع، وقيل: الشد؛ لأنه يشد على المعنى الذي يفهمه في قلبه، وسياق الآية في علماء اليهود، وهي تعم من تشبه بهم من هذه الأمة، ممن يأمرون الناس بالخير

ولا يعملون به، ويتلون القرآن ولا يعقلونه. ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الصبر حبس النفس على المكروه، وأقسامه ثلاثة: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وفي الآية حث على الاستعانة بالصبر والصلاة في تحقيق المطالب الدينية والدنيوية، ﴿وَإِنَّمَا الْكِبْرَةُ إِلَّا عَلَى الْخَشِيعِينَ﴾ أي الصلاة شاقة ثقيلة إلا على الخائفين من الله المتواضعين، وأصل الخشوع التذلل واللين. ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْتَفَتُونَ بِهِمْ وَلَهُمْ إِلَهُ وَرَجُوعٌ﴾ يظنون أي: يوقنون، يُطلق الظن على الشك وعلى اليقين، فهو من الأضداد، والظن التردد بين جائزين، والمراد به هنا اليقين، ولقاء الله يكون عند الموت، ويوم القيامة، ومن كان يرجو لقاء الله أحسن العمل، واستعد للأجل. ﴿يَبْنَئِ إِسْرَاءَ بِلْ أَدْكُرُوا بِنَعْيِ آلِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فضل الله بني إسرائيل على العالمين في زمانهم، فكان فيهم الأنبياء والصالحون، وكان فيهم التوراة، ثم ضيعوا العلم النافع وكفروا وعملوا المنكرات فغضب الله عليهم ولعنهم، وإن كانوا من أحفاد الأنبياء، فمن أبطأ به عمله لم يُسرِعْ به نسبه. ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي فِيهَا نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا تقضي ولا تغني عنها شيئاً، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ الشفاعة التوسط لجلب مصلحة أو دفع مضرة، ﴿وَلَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ عدل أي: فدية. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أي: اذكروا حين نجيناكم، والتنجية الإنقاذ من الهلكة بعد الوقوع فيها، ﴿مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ هم قومه وأهل دينه، وفرعون اسم من مَلِكِ الْقِبْطِ، وقبصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن، والنجاشي لمن ملك الحبشة، ويُقال: اسم فرعون منفتح بن رمسيس الثاني، والله أعلم. ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ﴾ يذيقونكم أشد العذاب، ﴿يَذَّبِحُونَ أَبْنَاءَ كُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ﴾ أي: يستبقونهم أحياءً لخدمتهم، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ﴾ البلاء له ثلاثة معان: النعمة والاختبار والشدة، والمراد هنا النعمة، والإشارة إلى الإنجاء، وقيل: المراد الاختبار، والإشارة إلى العذاب. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ أي: فلقناه لكم، والمراد البحر الأحمر، قيل: موضع ذلك في خليج السويس، والله أعلم، ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ أي: تُبصرونهم وهم يغرقون. ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الوعد يكون في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر، والوعيد في الشر خاصة، يقال منه: أوعدته، وموسى هو ابن عمران، من نسل لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، أرسله الله إلى فرعون وقومه وإلى بني إسرائيل، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾ أي: إلهاء، ﴿مِنَ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد أن فارقكم موسى إلى جبل الطور واستخلف عليكم أخاه هارون عليهما الصلاة والسلام، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بعبادة العجل المصنوع من الحلي، وزعمكم أنه إلهكم. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِمَّنْ بَعَدَ ذَلِكَ﴾ أي: محونا عنكم ذنوبكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشكر يكون بالقلب اعترافاً بالنعمة، وباللسان ثناءً، وبالجوارح عملاً صالحاً، فمن عصى الله بنعمة لم يشكره عليها. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

﴿٥٦﴾ الفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، والمراد بها هنا: التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجَلَ فُتَوْبُوا إِلَيَّ بَارِكُمْ﴾ خالفكم وموجدكم من العدم، ﴿فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قيل: المعنى: ليقتل البريء المحرم، وفي الأخبار الإسرائيلية أن الله تاب عليهم بعد أن قتل من لم يعبد العجل من عبده، وفي ثبوت ذلك نظر، فظاهر الآية أن الله نسخ الأمر بالقتل، وعفا عن بني إسرائيل من غير أن يقتل بعضهم بعضًا، واليهود ينكرون النسخ مطلقًا؛ ولهذا أنكروا شريعة عيسى وشريعة محمد عليهما الصلاة والسلام، وإثبات نسخ هذا الأمر حجة عليهم، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِكِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٧﴾، ظاهر الآية أن الله تاب عليهم ورفع عنهم الأمر الشديد بالقتل، ولي رسالة في بيان هذا الأمر بعنوان: هل قتل بنو إسرائيل أنفسهم بسبب عبادتهم العجل ليتوب الله عليهم؟ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: نبصر الله علانية بلا حجاب، ولا يمكن لأحد أن يرى الله سبحانه في الدنيا، ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّيْعَةَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ الصاعقة نار تنزل من السماء مع صوت شديد، وتطلق على العذاب المهلك. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أحياهم الله في الدنيا بعد أن أماتهم. ﴿وَوَلَلْنَا عَيْنَكُمْ بِالْعَمَاءِ﴾ أي: جعلنا السحاب الأبيض الرقيق ظلًّا لكم من حر الشمس مع بقاء ضوءها، ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى﴾ المَنَّ شَيْءٌ حَلْوٍ يَشْبَهُ الْعَسَلَ يَكُونُ عَلَى الشَّجَرِ كَالصَّمْغِ، وَالسَّلْوَى طَائِرٌ صَغِيرٌ مِثْلُ الْحَمَامِ يُسَمَّى السُّمَانِي، وقيل: يُشْبِهُ السُّمَانِي، ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ الطيبات من الرزق المباح اللذيذ المفيد. ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ قيل: هي مدينة بيت المقدس، وفلسطين أرض الأنبياء وأتباعهم الموحدين، والمسلمون أحق بموسى وأرض فلسطين المباركة من اليهود المغضوب عليهم، فقد كفروا وخالفوا دين الأنبياء، وكان هذا الأمر لبني إسرائيل بعد موت النبي موسى، في عهد النبي يوشع بن نون، ﴿تَكَلَّمُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَغَدَاوَا دَخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أمر الله بني إسرائيل أن يأكلوا من أي مكان من بيت المقدس رزقًا واسعًا هنيئًا، وأن يسجدوا لله شكرًا له عند باب المدينة إذا دخلوها فاتحين، وأن يقولوا: حِطَّةٌ يعني حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا، ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: نستر خطاياكم، ﴿وَسَارِعًا إِلَى الْيَوْمِ لِمَنْ هُوَ عَاقِبٌ﴾ ﴿٦١﴾ جمع محسن، والإحسان نوعان: إحسان في عبادة الخالق بالإتقان والمراقبة، وإحسان مع الخلق بالعتاء وحسن المعاملة. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ التبديل تغيير الشيء بغيره، وجاء تفسير هذه الآية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ)) رواه البخاري ومسلم، ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذابًا، ﴿يَمَّا كَانُوا يَسْفُتُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ بسبب خروجهم عن

طاعة الله إلى معصيته بالقول والفعل ومخالفة شريعته. ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: واذكر حين طلب موسى من الله الماء ليشرب منه قومه بنو إسرائيل، ﴿فَقَلْنَا أَصْرَبَ بِمَضَاكِ الْحَجَرِ فَأَنْجَحَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الانفجار انصداع شيء من شيء، ﴿فَدَعَا كُلُّ نَأْسٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: علم كل سبط من أسباط بني إسرائيل موضع شراهم من العيون الخارجة من الحجر، فلا يزاحم بعضهم بعضًا، ﴿كُلُّوْا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثو أشد الفساد بالكفر والمعاصي والقتل والنهب والظلم. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّبْرَعَنَّ طَعَامًا وَجِدٍ﴾ هو المن والسلوى، وصف بأنه واحد لأنه لا يختلف في كل يوم، ﴿فَادْعُ لِنَارِكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْآرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّاتِهَا وَفُومَهَا وَعَدْسِهَا بِبَصِلِهَا﴾ البقل هو النبات الذي تخضر منه الأرض مما لا ساق له مثل الفجل والنعناع والكرث والمرجير والحس ونحو ذلك، والقيثاء نوع من الخيار طويل مخطط لونه أخضر، والفوم هو الثوم، وقيل: الحنطة، وقيل: الحبوب التي تُطحن وتُخبز، والعدس والبصل من البقول المعروفة. ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أدنى أي: أخط في المنزلة، وكل من ستم النعمة المتيسرة، واستبدل الأدنى بالذي هو خير بلا ضرورة، فإنه يستحق التوبيخ، وفيه شبه باليهود، ومنهم الذين يختارون الحرام على الحلال، ﴿أَهَيْطُوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا تَلْتَمُونَ﴾ المصر البلد، والمراد أي مصر من أمصار الشام وبلاد النيل وغيرها، ففي أي بلد توجد تلك البقول، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: جعل الله عليهم الذل وفقر النفس، فالمهانة ملازمة لليهود في جميع أحوالهم، ﴿رَبَاةٌ وَيَعْضَبُونَ﴾ انصرفوا ورجعوا بغضب الله، والغضب صفة ثابتة لله سبحانه كما يليق بجلاله وعظمته، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَبْعَثُ اللَّهُ فِي سَبِيلِهِ﴾ إن اليهود قتلوا أباه أيضًا، وقتلوا شبيهه عيسى بن مريم، وهم يحسبونه النبي عيسى، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ العصيان عدم الانقياد لأمر الله ونهيه، والمعنى: أن الذلة والمسكنة وغضب الله على اليهود سببه عصيانهم لله ومخالفتهم شريعته وظلمهم عباده، ومن عصى الله واعتدى على عباده من هذه الأمة فهو مثل اليهود في الذلة واستحقاق غضب الله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المراد بالذين آمنوا المتبعون شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، والذين هادوا أي: تهودوا وصاروا يهودًا، وهم المتبعون شريعة موسى عليه الصلاة والسلام، والنصارى هم المتبعون شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام، والصابئون هم الباقون على فطرتهم أو الخارجون من دين إلى دين، وكان منهم موحدون يعبدون الله، ومنهم مشركون يعبدون النجوم وغيرها، وهذه الآية في الموحدون أتباع الأنبياء، الذين لم يحرفوا دينهم، وماتوا على دين الأنبياء قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أو أدركوه وآمنوا به، ولم يكفروا بالقرآن، فلهم ثوابهم على

الإيمان الصحيح والعمل الصالح. ﴿وَإِذَا خَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: الجبل، وقيل: الجبل ذو الشجر دون غيره، والمراد جبل في سيناء، رفعه الله فوق بني إسرائيل تخويماً لهم ليعملوا بالتوراة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلموا التوراة بجد ونشاط، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ هذا هو المشروع في تعلم كتاب الله، أن يتعلمه الإنسان بقوة ونشاط واجتهاد، وأن يتدبره ويتذكر ما فيه من الآيات ليؤمن بها، ويعمل بها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُوهَا بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: أعرضتم عن العمل بالتوراة بعد الميثاق المؤكّد وبعد أن رفع الله الجبل فوقكم، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤﴾ لم يعاجل الله اليهود بالعقوبة مع إعراضهم عن العمل بكتابه، فأمهلهم برحمته، وتفضل عليهم بالنعم الدينية والدنيوية مع كثرة شرهم. ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آغْتَدُوا مِيثَاقَكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوْمَ خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أي: مطرودين ذليلين، وهم الذين احتالوا في صيد الحيتان يوم السبت، وقد حرم الله عليهم العمل فيه، فلعنهم الله ومسحهم قردة. ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُنْقِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ أي: فجعلنا عقوبة أصحاب السبت عبرة لما بين يديها من القرى وما خلفها ليتعظ الناس بهم حين يعرفوا قصتهم، ويجذروا من مخالفة أمر الله ونهيه بالحيل، وليخاف المتقون من سوء عاقبة المعاصي. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هي الأنثى من البقر، وقد تُطلق على الثور الذكر، وكان بنو إسرائيل قُتِلَ منهم رجلٌ لم يعرفوا قاتله، فطلبوا من موسى أن يجبرهم بقاتله، فأوحى الله إليه أن يأمرهم أن يذبحوا بقرة ليعرفوا القاتل، ﴿قَالُوا أَنْتَخِذُوا هُزُؤًا﴾ أي: سخرياً واستهزاءً ولعباً، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ أي: أعتصم بالله أن أكون من الجاهلين جهل حِلْم، وهو الطيش والاستهزاء بالناس، ويُطلق الجهل أيضاً على جهل العلم، والله أعلم. ﴿قَالُوا أَدْغُ لِنَارِكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أي: بقرة لا كبيرة انقطعت ولادتها بسبب كبرها، ولا صغيرة لم تلد لصغر سنها، بل هي متوسطة بين الكبيرة والصغيرة. ﴿قَالُوا أَدْغُ لِنَارِكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْ نَهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي: لونها شديد الصفرة، يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك، وأبيض ناصع، وأحمر قان، ﴿تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ أي: تُفرح قلب من ينظر إليها لجمالها. ﴿قَالُوا أَدْغُ لِنَارِكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أي: إن البقر يشبه بعضه بعضاً فلم ندر ما نختار، وهذا من تعنتهم وتنطعهم، وكان الواجب عليهم أن يبادروا بالطاعة، ويذبحوا أي بقرة مهما كان سنها ولونها وحالها كما هو مطلق الأمر، فمن تعنت من هذه الأمة بعد وضوح الأمر، وتنطع وأكثر الأسئلة فقد تشبه باليهود المغضوب عليهم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا كَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ،

فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)). ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي: ليست بقرة سهلة الانقياد، غير مذللة لحرث الأرض، وليست ناضحة تسقي الأرض المزروعة، ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي: سالمة من عيوب الأبقار، والشية اللّمة المخالفة للون، والمعنى: لا لون فيها غير لوها الأصفر، ﴿ قَالُوا لَنْ نَجِيَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ في هذه الآيات أن من شدّد على نفسه شدّد الله عليه، وأن كثرة الأسئلة والتعنت ليست من صفات المتقين المسارعين في الخيرات، بل من صفات المنتنعين المتكلفين، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)). ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا قَادِرَةٌ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ أي: تدافعتم واختلقتم في القتل، والله مظهر القاتل، ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُعْطَى اللَّهُ الْمَوْثِقَ وَرِيكُمُ أَيَّتَبَهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ أي: اضربوا القاتل ببعض أجزاء البقرة المذبوحة، فأحياه الله بقدرته، وأخبر الناس بمن قتله. ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي: يبست قلوبكم وصلبت، والقساوة غلظ القلب وصلابته، فلا رحمة فيه ولا خشوع، وقسوة القلوب من صفات اليهود ومن شابههم من هذه الأمة، ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي: تهبط من المكان المرتفع بسبب الخوف من الله وتعظيمه، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ الغفلة بمعنى النسيان والسهو، وهي صفة منفية عن الله تعالى، فهو علام الغيوب، لا يغفل ولا ينسى سبحانه. ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ الطمع رجاء الشيء والرغبة فيه، ﴿ وَقَدْ كَانَ قَرِينٌ مِنْهُمْ ﴾ طائفة من اليهود، ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ يحرفونه: يُغيرونه، والتحريف يكون بتغيير الألفاظ أو تغيير المعاني، وعلماء اليهود حرّفوا التوراة بالنوعين، ومن يُحرّف معاني القرآن الكريم من علماء السوء ففهم شبهة بعلماء اليهود، ولا يمكن لأحد أن يُحرّف ألفاظ القرآن الكريم. ﴿ وَإِذَا قُلُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ الفتح إزالة الإغلاق، والمعنى: تخبرون المؤمنين بما علمكم الله وبين لكم في التوراة من بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام؛ لتكون للمسلمين الحجة عليكم يوم القيامة؟! ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَحْتَكِرُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ لَآ يَظُنُّونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ أميون لا يقرءون ولا يكتبون، أماني جمع أمنية، وهي التلاوة، ومنه قوله تعالى: { إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ } [الحج: ٥٢] أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته بعض الشبهات، والأماني: الأكاذيب وما يتمناه الإنسان ويشتهي، والآية تحتمل المعنيين: التلاوة والأكاذيب، فمن صفات اليهود: التلاوة بلا تدبر، والاعتزاز بالأمنيات الكاذبة كدعواهم أنهم شعب الله المختار، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأن

لهم الجنة خاصة من دون الناس، ويجب على المسلمين الحذر من الاتصاف بصفات اليهود، وأن يتدبروا القرآن ويتبعوا الحق، ولا يغتروا بالأمان الكاذبة. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكَيْبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ بِهِ ثُمَّناً قَلِيلاً قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيَهُمْ﴾ (٧١) ويل كلمة تهديد ووعيد، وتأني بمعنى الهلاك لمن لا يرجى نجاته، وورد في حديث ضعيف: (ويلٌ واد في جهنم)، رواه الترمذي في سننه وبين ضعفه وغرابته، ولا يصح الاعتماد على هذا الحديث الضعيف في تفسير كلمة (ويل). ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَلَّا نَكُونُوا مِمَّنْ قَدِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال اليهود: لن تصيبنا النار إلا أياماً قليلة، ثم يُخرجنا الله منها، وكل من اعتقد أن الله يُخرجه من النار مع كفره فقد تشبه باليهود في هذا الاعتقاد الخاطيء، أما خروج الموحدين من النار برحمة الله وفضله فهو ثابت بأدلة كثيرة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة المتواترة، ﴿قُلْ أَخَذْنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠) ليس عند اليهود عهد من الله أنه يخرجهم من النار، وإنما يقولون على الله ما لا يعلمون بلا دليل. ﴿يَكْفُرُ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) المراد بالسيئة هنا الشرك، فهي سيئة تُحيط بصاحبها من كل جانب وتحبط عمله وتوجب له الخلود في النار. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢) وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توكلتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ (٨٣) أخذ الله العهد المؤكد على اليهود أن يعبدوا الله وحده، وأن يحسنوا إلى الوالدين وجميع الأقارب من جهة الآباء والأمهات، واليتامى هم الذين مات آباؤهم وهم صغار قبل البلوغ، والمساكين جمع مسكين، وهو الذي سكنه الفقر أي: قلل حركته، وأمرهم الله بالقول الحسن وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأعرض اليهود عن العمل بهذه الأوامر، فظهر فيهم الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقطع الأرحام، ولم يحسنوا إلى اليتامى والمساكين، وساءت أخلاقهم في مخاطبة الناس ومعاملتهم، وتركوا إقامة الصلوات، فلا يصلي اليهود إلا يوماً في الأسبوع، ولم يؤتوا الزكاة الواجبة في أموالهم، وكل من أعرض عن هذه الواجبات من هذه الأمة فقد تشبه باليهود المغضوب عليهم، مثل الذين يقعون في الشرك بالله وعقوق الوالدين وقطع الأرحام، ومثل الذين لا يصلون إلا يوم الجمعة، ومثل الذين لا يؤتون الزكاة. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) أي: اعترفتم بحرمة القتل وظلم الناس بإخراجهم من مساكنهم. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: تتعاونون عليهم بما فيه إثم، والإثم ما يستحق فاعله اللوم والعقاب، والعدوان الإفراط في التعدي والظلم، حرّم الله على اليهود أن يقتل بعضهم بعضاً، وحرّم عليهم أن يتعاونوا

على ظلم بعضهم وإخراجهم من مساكنهم وبلدانهم، ﴿وَإِن يَأْتُواكُم مِّنْ مَّسَاكِينٍ أَوْ مَسَاكِينٍ مِّنْ دُونِهِمْ فَاصْبِرُوا لَهُمْ إِنَّ الصَّبرَ كَفَىٰ لِحُزْنِكُمْ﴾ (١٧٠) الأسارى هم المأخوذون قهراً في الحرب وغيرها، تفادوهم أي: تخلصوهم من الأسر بالفداء، بمالٍ أو بمبادلة بين أسرى الفريقين المتحاربين، كان اليهود إذا تحاربوا فيما بينهم يخلصون الأسرى عملاً بما في كتابهم من افتداء الأسرى، ولا يمتثلون ما حرّم الله عليهم من سفك الدماء وظلم الناس بإخراجهم من ديارهم، وكل من حارب إخوانه المسلمين وأراق دماءهم ونفاهم وأسره، ثم سعى في فدية الأسرى ففيه شبهة باليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ﴿فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ (١٧١) الجزء المقابلة على الخير بالثواب، وعلى الشر بالعقاب، ﴿الْآخِرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هوان وفضيحة وهلاك، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ يُردون: يُصرفون ويُرجعون، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٧٢) أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴿اشترؤا: استبدلوا، والدنيا سميت بذلك لدونها وسبقها الآخرة، وسميت الآخرة بذلك لأنها بعد أيام الدنيا، وهي الحياة الأبدية التي لا نهاية لها، ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ﴾ (١٧٣) الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُضْمَرُونَ ﴿١٧٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴿قفيْنَا: أتبعنا، والرسل جمع رسول، وهو المؤدّي عن الله ما أوحاه إليه، ويُرسله الله إلى قوم كافرين، وغالبًا يكون للرسول كتاب وشريعة، والنبي من أوحى الله إليه من غير أن يرسله إلى قوم كافرين، بل يكون بين قوم مؤمنين بشريعة رسول قبله، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، فمن الأنبياء الذين ليسوا رسلاً: آدم وإسحاق ويعقوب وإدريس وزكريا ويحيى، ومن الرسل الأنبياء: نوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل ولوط وشعيب وموسى وهارون وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ﴾ هي المعجزات المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قويناه بجبريل عليه السلام، سُمّي جبريل روح القدس لأنه يأتي بالوحي الذي فيه حياة القلوب وطهارتها، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١٧٥) من صفات اليهود تقديم ما تميل إليه نفوسهم على هدي الرسول، والتكبر عن قبول الحق، وقتل من يدعوهم إلى الحق، ومن اتصف بهذه الصفات من هذه الأمة فهو مثل اليهود. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محجوبة مغطاة لا تفهم كلام من يدعوهم إلى الله وينصحهم، ﴿بَلْ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ اللَّهَ يَكْفُرِيهِمْ﴾ أي: طردهم الله وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم، ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧٦) أي: لا يؤمنون إلا بشيء يسير مما يجب عليهم التصديق والعمل به، والواجب الإيمان بكل ما يجب الإيمان به، وقبول كل ما جاءت به شريعة الله سبحانه. ﴿وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴿١٨﴾ هو القرآن الكريم، موافق لما معهم من التوراة، ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ كان اليهود من قبل بعثة النبي محمد عليه الصلاة والسلام يستنصرون بالنبي الذي ينتظرونه بمعنى يطلبون بيعته النصر على كفار العرب، فاليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن الله سيبعث نبياً في آخر الزمان، وأنه سيهاجر إلى مدينة يثرب، فانتقلوا إليها وسكنوا فيها وقريباً منها منتظرين بعثته، وكانوا يقولون للعرب إذا حصل بينهم شرور وقتال: إنه قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أسلم الأنصار أهل المدينة، وكفر اليهود بالنبي محمد لما وجدوه عربياً، وكانوا يرجون أن يكون إسرائيلياً. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ آخَرُوا بِهِنَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ بئس كلمة موضوعة لإنشاء الدم، والمعنى: قُبِحَ ما باعوا به أنفسهم، ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ظلماً وحسداً وتطاولاً، ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من أجل أن يُنزل الله وحيه على من يشاء من عباده، وكان الواجب على اليهود أن يؤمنوا بالنبي المبشّر به في التوراة، سواء كان إسرائيلياً أو عربياً، ﴿فَبَاءُوا وَبِعْضِبٍ عَلَى عَضَبٍ﴾ أي: رجعوا بغضب من الله بسبب كفرهم بالرسول محمد والقرآن بعد غضبه عليهم بسبب كفرهم بالرسول عيسى والإنجيل، ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٩﴾﴾ مذل. ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ. وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ وإذا قيل لليهود المعاصرين للنبي محمد: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، قالوا: نؤمن بالتوراة فقط، ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: قل يا نبينا محمد لليهود: إن كنتم مؤمنين بالتوراة حقاً فلم قتل أجدادكم الأنبياء ورضيتهم بقتلهم؟! ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحات كالعصا وانشقاق البحر وانفجار عيون الماء من الحجر، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ثم اتخذتم العجل معبوداً من بعد أن فارقتكم موسى إلى جبل الطور واستخلف عليكم هارون عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ التقدير: حُبُّ العجل، على حذف المضاف، والمعنى: خالط حُبُّ العجل قلوبهم بسبب كفرهم بالحق، ﴿قُلْ يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ إِيْمَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴿٢٣﴾﴾ أي: قل لليهود: إن كانت الجنة خاصة بكم كما ترعمون فتمنوا الموت لتدخلوا الجنة. ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي والظلم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الحِرْص: شدة الطلب، فاليهود أحرص الناس على البقاء في الحياة وإن كانت حياة مهينة، وهم أحرص

على الدنيا من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: يتمنى اليهودي لو يطول عُمره ألف سنة، وما طول عُمره بمبعده ومُنْجِيهِ من عذاب النار، ﴿وَاللَّهُ بِصِدْقِهِمَا يُعَمِّلُكَ﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ جبريل وميكايل ملكان كريمان، ويقال في اسميهما: جبريل وجبرئيل وميكايل وميكايل، وجبريل أعظم الملائكة، وكان ينزل بالوحي على النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وكان بعض اليهود المعاصرين للنبي محمد عليه الصلاة والسلام يكرهون جبريل لأنه ينزل بالعذاب بإذن الله، ويجبون ميكايل لأنه ينزل بالرحمة والمطر، وزعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكايل ولي لهم، وقالوا للنبي محمد: لو كان الذي ينزل عليك بالقرآن ميكايل لآمنا بك، فأنزل الله هاتين الآيتين ردًا عليهم. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١٩﴾ المراد بالآيات هنا آيات القرآن الكريم التي أنزلها الله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، فهي دلائل واضحة تدل على الحق بلا خفاء. ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَّهْدُوا عَهْدًا بِنَدَاهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ نبذه تركه وألقاه وطرحه على وجه الاستحقار، فمن صفات اليهود نقض العهود، والإعراض عن كتاب الله، وشابهم في ذلك المنافقون والفاسقون من هذه الأمة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أكثر اليهود لا يصدقون بالحق اعتقادًا وقولًا وعملاً، وفي كل زمان لا يؤمن منهم إلا قليل، حتى في زمن أنبيائهم. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم، يصدق ما مع اليهود من التوراة قبل تحريفها، وهو النبي المبشِّرُ بمجيئه في التوراة، ﴿بَدَّ وَرَيْبٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ترك طائفة من أهل الكتاب كتابهم وراء ظهورهم، متجاهلين ما فيه من البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام، كأنهم لا يعلمون تلك البشارات المذكورة، فهم معرضون عن اتباعها، ويزعمون أن المقصود بها نبي آخر غير محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ تتلوا بمعنى تقرأ، ومعنى تتبع، ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ أي: في زمان النبي سليمان، أي: اتبع اليهود ما تحدّث به الشياطين من السحر الذي ينسبونه إلى سليمان، وافتروا عليه أنه كان يستعمل السحر، ﴿وَمَا كَفَرُوا سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ لم يكن النبي سليمان كافرًا يمارس السحر، بل الذين كفروا بسبب السحر الشياطين الذين يعلمون الناس السحر، ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَيْدٍ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ أي: ويعلموهم السحر الذي ألهمه الملكين ببابل، وهي مدينة في العراق، وهاروت وماروت ملكان ألهمهما الله السحر فتنة للناس، والله يبتلي العباد بما شاء، وقصتهما غير مفصلة في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، ولا علم لنا إلا ما علّمنا الله سبحانه، ولا ينبغي التكلف في طلب معرفة قصتهما، ولا

يجوز الاعتماد على الأخبار الإسرائيلية التي يكثر فيها الكذب والزيادة والنقصان، ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فتنة: بلاء واختبار، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بعلمه وقدرته ومشيعته، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: علم السحرة أن من اختار السحر وتعلمه وقدمه على كتاب الله فليس له في الآخرة نصيب من الجنة، ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: باعوها، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا يعلمون عاقبة تعلم السحر وأنه علم مدموم لما اختاروه، ويؤخذ من هذه الآية نفي العلم عن من كان عنده علم نافع لا يعمل به، أو كان عنده علم لا ينفع كالسحر. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو أن السحرة آمنوا واتقوا الله بدل تعلم السحر وتعليمه والعمل به لحصل لهم ثوابٌ عظيم من عند الله أعظم مما يحصلون عليه بسبب السحر. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا﴾ راعنا من المراعاة، وهي العناية بالشيء والحفاظة عليه، أي: راع أحوالنا وحافظنا أو راعنا سمعك فافهم عنا وأفهمنا، ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ انظرنا أي: انظر إلينا وتعهدنا أو انتظرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتعلم منك، وكان اليهود يقولونها للنبي ويقصدون بها السب من الرعونة، فأمر الله تعالى المؤمنين أن لا يقولوها حتى لا يتشبهوا باليهود في قولها، ويستفاد من هذه الآية مشروعية الأدب، والحرص على اختيار الألفاظ الحسنة، وتجنب ما يوهم سبًا، والحذر من قبول ما يصدر من الكفار إلا إذا تبين خلوه من المخالفات الشرعية والمقاصد السيئة، ويستفاد من الآية أنه ينبغي لمن نحى الناس عن شيء أن يدلهم على ما هو خير منه. ﴿مَا يَوْزُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذه الآية بداية الآيات التي فيها تهمة نفسية للمسلمين قبل نسخ القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يختص: يؤثر، والاختصاص بالشيء الانفراد به، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ صاحب العطاء الكبير في الدنيا والآخرة لمن يشاء. ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ النَّسخ لغة: الإزالة والنقل، وشرعًا: رفع حكم دليل شرعي أو لفظه بنص من القرآن أو السنة، كما نسخ الله في أول الإسلام استقبال المسجد الأقصى في الصلاة إلى استقبال المسجد الحرام، فأثنى الله المسلمين بحكم خير من الحكم المنسوخ، وفي النَّسخ حكمٌ عظيم، وغالبًا يكون النَّسخ تخفيفًا على المسلمين، أو تكثيرًا لأجورهم، وقوله: ﴿نُنسِهَا﴾ من النسيان ضد الحفظ، وفي قراءة: ﴿نَسَّأَهَا﴾ أي: نؤخر إنزالها، قال الله تعالى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]، فبعض الآيات نزلت على النبي عليه الصلاة والسلام ثم أنساه الله تلاوتها، ومحامها من القلوب، وبعض الآيات أحرَّ الله إنزالها

على رسوله إلى آخر حياته. والنسخ في القرآن ثلاثة أنواع: الأول: نسخ التلاوة والحكم معًا، ومثاله: ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُجرِّمن، ثم نُسخن بخمس معلومات)، والثاني: نسخ التلاوة دون الحكم، ومثاله آية رجم الزاني المحسن، والثالث: نسخ الحكم دون التلاوة، والآيات التي نُسخ حكمها وبقي لفظها يُتلى في القرآن الكريم ثمان آيات فقط هي:

(١) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، منسوخة بآيات الموارث، فلا وصية لوارث كالوالدين، أما الوصية للأقارب غير الورثة فهو مُحَكَّم غير منسوخ.

(٢) ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، نسخها قوله تعالى بعدها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(٣) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، نسخها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وهذه الآية الناسخة متقدمة على الآية المنسوخة في ترتيب آيات سورة البقرة، وقيل: ليست منسوخة، والوصية إلى سنة مستحبة لا واجبة، والقول بنسخها هو المشهور، والله أعلم.

(٤) ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمُ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمُ فَأَذْوَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٥، ١٦]، نسخ حكم هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وآية الرجم التي نُسخ لفظها وبقي حكمها، وهي قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، وما ثبت في الأحاديث الصحيحة المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم في جلد الزاني غير المحسن، ورجم الزاني المحسن.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، نسخها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٦ ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، نسختها الآية التي بعدها: ﴿الآنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

٧ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، نسختها الآية التي بعدها: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣].

٨ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢ - ٤]، هذه الآيات في أول سورة المزمل نسختها الآية التي في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧) المعنى: وليٌّ قريبٌ يقيم أمركم، ولا ناصرٌ ينصركم. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلْتَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ هي أسئلة التعنت والاعتراض واقتراح المعجزات، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٨) أي: حاد عن وسط الطريق، فكل من ارتد عن الإسلام فقد ضل عن الطريق المستقيم، وانحرف إلى غيره من الطرق المهلكة. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَوْ يُرَدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّئْنَ لَهُمْ أَنَحْوُ﴾ يتمنى كثيرٌ من اليهود والنصارى أن يضلوا المسلمين، ويجعلوهم مرتدين بعد إيمانهم، ﴿فَاعْتُوا وَأَصْحَابُ﴾ العفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم، والإعراض عن الذنب، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: بحكمه فيهم، وقد قال بعض المفسرين بنسخ هذه الآية ونحوها من الآيات التي فيها الأمر بالعفو عن الكافرين والإعراض عنهم والصبر عليهم، وزعموا أنها منسوخة بآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، والراجع أنها آيات محكمة، أمر الله بها المسلمين في حال ضعفهم، وآية السيف وغيرها من آيات الجهاد محكمة، أنزلها الله في حال قوة المسلمين، وليست ناسخة لآيات العفو والصفح والصبر، فلم يأمر الله بالعفو عن الكافرين والإعراض عنهم مطلقاً، بل إلى غاية، وهذا لا يدخل في المنسوخ، فلما صار للمسلمين قوة ودولة أمرهم الله بالجهاد، وقد يحسن الصبر والعفو والإعراض عن الكافرين حتى في حال قوة المسلمين، وقد ثبت في السيرة النبوية عفو النبي

عليه الصلاة والسلام عن كثير من الكافرين في حال قوته، كعفوه عن كفار قريش حين فتح مكة، فالعفو عن الكافرين والمنافقين أو عقوبتهم وجهادهم يُرجع فيه إلى مصلحة الإسلام والمسلمين، سواء في حال قوة المسلمين أو ضعفهم، ولا يصح دعوى نسخ آية مع إمكان كونها محكمة، قال ابن الجوزي في مقدمة كتابه نواسخ القرآن: "معلومٌ أن نسخ الشيء رفع حكمه، وإطلاق القول برفع حكم آية لم يُرفع جُزأةً عظيمةً". ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١١٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ أَي: تجدوا ثوابه محفوظاً عند الله لا يضيع، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠) البصير من أسماء الله الحسنى، فهو يرى كل شيء وإن صغر وخفي، يرى ما في باطن الأرض والجبال، وما في بطون الحيتان في أعماق البحار، ويرى ذرات الهباء وقطرات الماء، يرى أعمال العباد، ويرى الأرواح في الأجساد، ويراها بعد خروجها من الأجسام، ويرى ما تفرق من أجزاء الموتى، ويرى كل ذرة في ملكوت السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء سبحانه. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا﴾ أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، ﴿تِلْكَ آيَاتُنَا لَكُمْ وَأَبَاتِلَهُمْ وَأُوْهَامَهُمُ الْفَاسِدَةَ، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١٣) أي: أحضروا وقربوا حجتكم ودليلكم. ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٣) أي: ليس الأمر كما يزعم اليهود والنصارى، بل من أخلص عبادته لله وحده، وهو محسنٌ باتباع شريعة الله التي رضيها لعباده وهي الإسلام فهم أهل الجنة، ولا خوف عليهم مما يستقبلونه بعد الموت وفي الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من خير الدنيا وما وقع عليهم من شر وبلاء في الدنيا الفانية. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَاءُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَوَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: ليسوا على شيء من الدين الصحيح، أنكر كل منهما ما مع الآخر من الحق وهم يتلون التوراة والإنجيل، وهذا خلاف الإنصاف، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هم مشركو العرب وغيرهم، أنكروا ما مع أهل الكتاب من الحق، وادعت كل طائفة أن الحق معها دون غيرها تعصبًا بلا بينة، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤) أي: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع عبادة الله في المساجد، واجتهد في إفسادها حسيًا ومعنويًا كمن يهدمها أو يمنع عبادة الله فيها، مثل كفار قريش الذين منعوا المسلمين من عبادة الله في المسجد الحرام، وشرع الله جهاد هؤلاء الظالمين حتى يخافوا من المسلمين، ولا يدخلوا مساجد الله إن دخلوها إلا وهم خائفون من المجاهدين أن يقتلوهم أو يأسروهم، وهم في الدنيا هوانٌ، وهم في الآخرة عذاب النار. ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْكَرِيمُ فَأَيُّكُمْ تَوَلَّى فِتْنَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَظِيمٌ﴾ (١١٤) أي:

لله جهة المشرق التي تطلع منها الشمس، وجهة المغرب التي تغيب منها، فله جميع الجهات، فإلى أي جهة تتوجهوا في صلاتكم بأمر الله فهناك القبلة التي شرعها الله لكم، وهذا تمهيد قبل الأمر بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ويؤخذ من هذه الآية جواز صلاة النافلة في السفر على الراحلة ونحوها إلى أي جهة كما بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بسنته الفعلية، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥) الواسع من أسماء الله الحسنى، بمعنى واسع الصفات والعظمة، واسع العلم والرحمة والسلطان والملك والفضل والإحسان. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ أي: يتنزه الله عن النقائص التي يصفه بها المشركون والجاهلون كاتخاذ ولد أو شريك، ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ﴾ (١٦) أي: خاضعون مطيعون، فكيف يكون عيسى أو غيره ولدًا أو شريكًا لله سبحانه؟! ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بديع: مبدع، أي: الله خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق، ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١٧) أي: إذا أراد شيئًا، ومن ذلك أنه خلق عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام بكلمة كن، من غير أب. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٨) لولا أي: هلاً، آية: معجزة تدل على أن الله هو المستحق للعبادة وحده، وأن محمدًا رسوله، وأن القرآن كتابه، وهذا من تعنت كفار العرب، فالحق واضح لا يحتاج إلى معجزة، وهو يوافق العقل والفطرة، والدلائل على الحق كثيرة لا تخفى على منصف، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: قول كفار العرب المعاصرين للنبي محمد عليه الصلاة والسلام الذين طلبوا المعجزات ليؤمنوا بالحق مطابق لقول من قبلهم من اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم السابقة الذين تعنتوا واستكبروا عن اتباع الحق، ﴿تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تشابهت قلوب كفار العرب مع كفار الأمم السابقة في الكبر والتعنت والعناد ومخالفة الأنبياء وطلب المعجزات، ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١٨) أي: قد بينا العلامات الواضحة التي تدل على صدق الرسل بلا شك لقوم يصدقون بالحق. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ الخطاب للرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فهو يُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ الْحَقِّ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُنذِرُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْفَاسِقِينَ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿وَلَا تُشْعَلُ عَنْ أَحْسَبِ الْجَحِيمِ﴾ (١٩) أي: لست مسئولاً عن عدم إيمانهم، إنما عليك البلاغ، وعلى الله الحساب، وفي قراءة: { وَلَا تُسْأَلُ } أي: لا تسأل عمن مات منهم على كفره وإجرامه، فعذابهم فظيع لا يتصوره عقل إنسان. ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٢٠) ملتهم: دينهم وطريقتهم، فاليهود والنصارى لا يرضون عن أحد حتى يتبع دينهم وطريقتهم، ويكون مثلهم متبعًا لأهوائهم، واتباع أهواء اليهود والنصارى ضلال وخسران في الدنيا والآخرة. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ إِكْتِبَابَ بَلْوَاهُ حَتَّىٰ تَلَاوَنَهُ أَهْوَاؤُهُمْ وَتُؤْمِنُونَ

﴿بِهِ﴾ التلاوة تُطَلَّقُ عَلَى الْإِتِّبَاعِ وَعَلَى الْقِرَاءَةِ، أَي: يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، وَيَقْرَءُونَهُ حَقَّ قِرَاءَتِهِ، نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا كِتَابَهُمُ الَّذِي يَبْشُرُ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّنُوا بِالْقُرْآنِ، وَهِيَ تَعْمُ الْمُتَّبِعِينَ لِلْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِهِ، وَيَرْتَلُونَهُ وَيَتَدَبَّرُونَهُ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٦) أَي: وَمَنْ يَكْفُرُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِ بِأَنْ يَنْكُرَ بَعْضُ مَا فِيهِ أَوْ يَحْرِفُهُ وَيَبَدِّلُهُ فَهَمُ الْخَاسِرُونَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ كَفَرُوا بِالتَّوْرَةِ، وَأَنَّ النَّصَارَى كَفَرُوا بِالْإِنْجِيلِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْبَشَارَةِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَحَرَفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، وَالْمُؤْمِنُونَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ حَقًّا يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ سَيِّدِ الْيَهُودِ وَأَعْلَمِهِمْ فِي عَصْرِ النَّبُوَّةِ، وَالنَّجَاشِيِّ النَّصْرَانِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَنْ اتَّبَعَ كِتَابَهُ بِصِدْقٍ وَتَدَبَّرَهُ، وَسَمِعَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِإِنصَافٍ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ، قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُنذَرُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} [القصص: ٥٢، ٥٣]، وَمَعَ تَحْرِيفِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِيهَا بَشَارَاتٌ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ بَعْضُ الْبَشَارَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الَّتِي بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى:

البشارة الأولى: فِي سِفْرِ التَّنْبِيَةِ (١٨ / ١٧، ١٨): (قَالَ لِي الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا. أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُهُ بِهِ).

البشارة الثانية: فِي سِفْرِ التَّنْبِيَةِ (٢٣ / ٢): (فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ، وَتَلَأَأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبَوَاتِ الْقُدْسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ)، وَسَعِيرٌ اسْمٌ لَجِبَالِ فِلَسْطِينَ، وَفَارَانَ اسْمٌ مَكَّةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَمَعْنَى مَجِيئِهِ مِنْ سَيْنَاءَ إِعْطَاؤُهُ التَّوْرَةَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِشْرَاقُهُ مِنْ سَعِيرٍ إِعْطَاؤُهُ الْإِنْجِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتِعْلَاؤُهُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ إِنْزَالَهُ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالذَّلِيلُ مِنَ التَّوْرَةِ عَلَى أَنَّ فَارَانَ مَكَّةَ مَا جَاءَ فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ (٢١ / ٢٠، ٢١) فِي بَيَانِ حَالِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ وَسَكَنَ فِي الْبَرِيَّةِ وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِيَّةِ فَارَانَ).

البشارة الثالثة: فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ (٤٩ / ١٠): (فَلَا يَزُولُ الْقَضِيبُ مِنَ يَهُودَا وَالْمَدْبَّرُ مِنْ فَخْذِهِ حَتَّى يَجِيءَ الَّذِي لَهُ الْكُلُّ وَإِيَّاهُ تَنْتَظِرُ الْأُمَمُ)، وَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي تَرْجُمَةِ هَذَا اللَّفْظِ، وَسَبَبِ حَيْرَتِهِمْ هُوَ التَّعَصُّبُ الْأَعْمَى وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، وَمَنْ أَنْصَفَ مِنْهُمْ قَالَ: الْمُرَادُ بِالَّذِي تَنْتَظِرُهُ الْأُمَمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ كَمُوسَى كَانَ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً.

البشارة الرابعة: في إنجيل يوحنا (١٦ / ٧، ١٢، ١٣): (لكني أقول لكم: الحق إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم. وإن لي كلامًا كثيرًا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن. وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق؛ لأنه لا ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي)، والمراد بالفارقليط محمد عليه الصلاة والسلام، وقد أقر بذلك بعض علماء النصارى العارفين بالإنجيل، وآمن كثيرٌ من النصارى بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

البشارة الخامسة: في إنجيل يوحنا (١٦ / ١٢، ١٣): (إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحملوها الآن، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق".

فأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام مع وجود البشارة به في كتبهم هم في الحقيقة لا يؤمنون بكتبهم، بل يتبعون أهواء الضالين من قبلهم، الذين أضلوا من اتبعهم، قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]. ﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ يأمر الله بني إسرائيل أن يتذكروا ما أنعم عليهم من النعم الدينية والدينية، حتى يتركوا الكفر والظلم والمعاصي والإصرار على الباطل، فتذكر النعم يدعو الإنسان إلى شكر الله، قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]، وقال سبحانه: {وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ} [الدخان: ٣٢، ٣٣]، وأمر الله بني إسرائيل أن يحذروا عذابه يوم القيامة الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن نفسٍ ما وجب عليها من الحق لغيرها، ولا يُعني فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، ولا يُقبل من الناس الفداء، ولا تنفع الشفاعة للكافرين، ولا أحد يُنقذ أهل النار منها. ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: اذكر حين اختبر الله إبراهيم بأوامر فعمل بها، ولم يترك منها شيئًا، ومنها: الهجرة إلى الشام والختان عند الكبر وإسكان ابنه إسماعيل في مكة والأمرُ بذبحه، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٦﴾﴾ أي: يأتهم بك الناس فيتبعونك على التوحيد، ويقتدون بك في العبادة والدعوة والصبر وحسن الأخلاق، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴿١٢٧﴾﴾ أي: اجعل من ذريتي من يكون إمامًا يُقتدى به، والذرية الأولاد وأولاد الأولاد، وجميع الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، ﴿قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: لا ينال الإمامة في الدين من كان من الظالمين من ذرية إبراهيم وغيرهم. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتِنَا مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ﴿١٢٩﴾﴾ أي: جعلنا الكعبة مرجعًا للناس

يثوبون إليه أي: يرجعون إليه في حجهم وعمرتهم، ومن قصده تمني العودة إليه، ويأمن من دخله، ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أي: موضعاً للصلاة، ويستحب لمن طاف بالكعبة أن يصلي ركعتين خلف المقام أو قريباً منه، ومقام إبراهيم الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو بيني الكعبة حين ارتفع بناؤها، وفيه أثر قدمي إبراهيم، ﴿وَعَهْدَنَا﴾ أي: أوصينا وأمرنا ﴿إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ العاكفين: المقيمين في المسجد الحرام، والاعتكاف اللبث في المسجد للصلاة وذكر الله. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَاتًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ خص إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه بالرزق المؤمنين، ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بين الله لإبراهيم أنه يرزق الكافر أيضاً في الدنيا، يمتعه قليلاً مدة عمره، ومعنى أضطره: أُلجئته، والمصير: المرجع. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: واذكر حين كان يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد الكعبة، جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقها من البناء، كانا بينان جدران الكعبة فوق الأسس، ويدعوان الله أن يتقبل منهما بناء الكعبة المشرفة. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ الإسلام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أمة: جماعة، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: بصّرنا بمعالم الحج، ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ كان إبراهيم وإسماعيل يتوسلان في دعاء الله بأسمائه الحسنى، ولم يتوسلا إليه بنبي أو بملك أو بالكعبة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قدوة الصالحين، فمن توسل في دعائه بالمخلوقين فقد خالف سنة الأنبياء والصالحين الذين ذكر الله بعض أدعيتهم في القرآن، وفيها التوسل بأسماء الله الحسنى. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دعا إبراهيم وإسماعيل أن يبعث الله من ذريتهما نبياً يتلو على الناس آيات كتابه، ويعلمهم القرآن والسنة، واستجاب الله دعاءهما، وبعث من ذريتهما نبيه محمداً عليه وعليهما الصلاة والسلام، ومعنى يُزَكِّيهِمْ: يُطَهِّرُهُمْ ظاهراً وباطناً من الشرك والمعاصي والأخلاق السيئة والأدناس الحسية والمعنوية، والعزير من أسماء الله الحسنى، الذي له معاني العزة كلها: عزة القوة، وعزة القدر والعظمة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وعزة عدم النظر، فالله سبحانه عزيز بمعنى قوي، وعزيز بمعنى عظيم القدر، وعزيز بمعنى قاهر وغالب لكل شيء، وعزيز بمعنى أنه غني بذاته، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يبلغ العبادة ضره ولا نفعه، فهو لعزته يمتنع أن يناله أحد بسوء، ولا يمنعه أحد عن فعل ما يشاء، وعزيز لا نظير له ولا مثيل. ﴿وَمَنْ يَرْعَبْ عَنْ مَلَأَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: مَنْ يُعرض عن دين إبراهيم، وهو التوحيد، دين جميع الأنبياء إلا السفیه الذي يجهل ما ينفعه، ويُهْلِك نفسه بجهله وحمقه، ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْتَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ اخترناه للنبوّة، ﴿وَإِنَّهُ فِي

الْآخِرَةَ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ أي: يكون في الجنة مع الأنبياء والصالحين، والصالح هو الذي يقوم بحقوق الله وحقوق عباده. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ﴾ أي: أخلص نفسك لله، فاعبد الله وحده، ولا تعبد غيره، وأطعه في أمره ونهيه ولا تتبع هواك، ﴿فَأَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: استسلمت لله بالتوحيد والطاعة. ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الإسلام دين جميع الأنبياء، ووصى إبراهيم أبناءه بجملة الإسلام وكلمة التوحيد، ووصى بها أيضًا يعقوب أبناءه، ﴿يَبْنَئِ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: كلا من إبراهيم ويعقوب قال لأبنائه: إن الله اختار لكم دين الإسلام فتمسكوا به ولا تفارقوه حتى يأتيكم الموت وأنتم ثابتون عليه، وأبناء إبراهيم هم إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب بن إسحاق، وفي التوراة أنه كان لإبراهيم أبناء آخرون من غير هاجر أم إسماعيل وسارة أم إسحاق، منهم مدين بن إبراهيم، والله أعلم، وأبناء يعقوب اثنا عشر، وهم يوسف وإخوته. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ العرب تجعل الجد أبا، وتسمي العم أبا والخالة أمًا، فيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وعمه إسماعيل بن إبراهيم. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: جماعة قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لها ما عملت ولكم ما عملتم، ولا ينفع الأحفاد الانتساب إلى الأجداد الصالحين، ولا يضرهم إن كان أجدادهم فاسدين، ﴿وَلَا تَسْتَلُونَهُمْ كَمَا لَبِئْتُمْ بِهِمْ﴾ الآية عامة في كل من مضى، فلا يسأل عن أعمال السابقين من جاء بعدهم، وكل جيل وإنسان مسئول عن عمله وعمل من كان في زمنه دون من كان في غير زمنه، والواجب على أهل كل عصر أن يتعاونوا على البر والتقوى، ويناصروا المظلومين، ويرحموا المساكين، ويتناصحوا فيما بينهم، ومن رأى منكراً في زمنه فعليه أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أي: قالت اليهود للمسلمين: كونوا يهودًا، وقالت النصارى للمسلمين: كونوا نصارى، ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: بل نتبع دين إبراهيم، وهو التوحيد وطاعة الله، ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، مستقيماً على طاعة الله، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾﴾ كان النبي إبراهيم مسلماً، وجميع الأنبياء والصالحين من أمهم مسلمون، واليهودية والنصرانية بدع مخالفة لدين الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، فالإسلام دين جميع الأنبياء وأتباعهم، قال الله تعالى حاكياً عن نوح أول الرسل إنه قال لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقال يوسف عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَحْسَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي﴾

إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ { [آل عمران: ٥٢]، وقال الله سبحانه: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا} [الحج: ٧٨] أي: الله هو الذي سمّاكم المسلمين من قبل القرآن في سائر الكتب، وسمّاكم المسلمين في هذا القرآن، وقال سبحانه: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: ١٩]، فدينُ الأنبياءِ واحد، متفقٌ في الأصول، وإن اختلف في بعض الشرائع، قال الله سبحانه: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]، فالدين واحد، والشرائع مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يُحِلُّ اللهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ، لِيَعْلَمَ مَنْ يَطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْبُدُهُ، وَدِينُ اللهِ هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ سِوَاهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ، وَقَدْ حَرَّفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا يَجُوزُ اعْتِقَادُ أَنَّ دِينَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بَعْدَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ دِينٌ سَمَاوِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧٨]، وكل من خالف الإسلام وأعرض عنه فإنه كافرٌ شقي، وإن لم يتب من كفره فهو من أهل النار، قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)). ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ الأَسْبَاطُ جَمْعُ سَبْطٍ، وَهُمْ قَوْمٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى أَبِي وَاحِدٍ، وَالْأَسْبَاطُ فِي بَنِي يَعْقُوبَ (إِسْرَائِيلَ) كَالْقَبَائِلِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ سَبْطًا مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدًا لِيَعْقُوبَ. ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَلَمَّاهُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ هذه الآية خطابٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَمَنْ آمَنَ كِإِيمَانِ الصَّحَابَةِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ مَنْهَجِ الصَّحَابَةِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُوَ فِي شِقَاقِ أَيْ: مَبَايِنَةٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعَدَاوَةٍ، وَالآيَةُ تَعْمُ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي عَصْرِ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٢﴾﴾ أَيْ: سَيَكْفِيكَ اللهُ شَرَّ الْمُخَالَفِينَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْإِيمَانِ الصَّحَابِيِّ، وَمَنْ صَبَرَ وَاتَّقَى اللهُ فَإِنَّ اللهُ يَكْفِيهِ شَرَّ الْمُخَالَفِينَ لِشَرِيعَتِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ وَأَهْلِ الْبِدْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]، وَقَالَ سَبْحَانَهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ

{ [الحج: ٣٨]، وهذه الآية فيها حث جميع الناس على الإيمان كيإيمان الصحابة، والأمر باتباعهم في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من مخالفتهم في الدين، فاتباع منهجهم في العلم الشرعي والعمل الصالح هدى، ومخالفتهم ضلالة، قال الله تعالى: { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء: ١١٥]، وقال عز وجل: { وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: ١٠٠]، ومن صفات المنافقين الاستهزاء بالصحابة ومن اتبعهم من علماء الأمة وصالحيتها، وادعاء أنهم سفهاء كما قال الله: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } [البقرة: ١٣]، والدين بالاتباع، لا بالابتداع، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرِي أَحِبَالًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح. ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً﴾ أي: الزموا دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها، سُمِّيَ الدينُ صبغةً لظهور أثره على المسلم من الطهارة والصلاة وذكر الله والأخلاق والآداب والخشوع وصلاح القلب والأعمال، ﴿وَتَحَنَّنَ لَهُ عَبْدُونَ﴾ (١٣٨) موحدون أذلاء لله خاضعون لشريعته. ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَتَحَنَّنَ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩) أي: قل لليهود والنصارى: أتجادلوننا في الله الذي نعبد وحده بشريعتنا ونحن له مخلصون في أعمالنا الظاهرة والباطنة؟! والإخلاص: تصفية العمل الصالح للخالق عن ملاحظة المخلوقين، وتخليصه من الشرك والرياء والسمعة، وعدم إرادة شيء من الدنيا به، وإرادة التقرب به إلى الله وحده، وتام الإخلاص بترك المعاصي. ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ الخطاب لجهلة اليهود والنصارى الذين يزعمون أن الأنبياء كانوا يهودًا أو نصارى، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠) هذا تعريض بعلماء اليهود والنصارى الذين يعلمون أن الأنبياء لم يكونوا على اليهودية ولا النصرانية، وإنما كانوا على دين الإسلام. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (١٤١) هذه الآية مكررة للاهتمام بمعناها، ولتقرير ما تضمنته، فما تكرر تقرر ورسخ في القلوب. ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَعْلَمُونَ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) السفهاء هم الجهال الطائشون في أقوالهم وأفعالهم، الذين لا يتحرون الصواب فيما يقولون ويفعلون، وهم اليهود والمنافقون والمشركون، تساءلوا: ما صرف المسلمين عن قبلتهم الأولى؟ وأنكروا تحويل

قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، والقبلة الجهة، سُميت قبلةً لأن المصلي يقابلها وتقبله، والله جميع الجهات، يهدي من يشاء من عباده إلى الطريق الصحيح، وهدى هذه الأمة إلى قبلة النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكما هداهم إلى أفضل قبلة جعلهم خير الأمم. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً، والاعتدال هو التوسط بلا إفراط ولا تفريط، ﴿لِنُكَلِّمَهُنَّ أَشْهَادًا عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ هذه الأمة تشهد يوم القيامة أن الرسل بلغوا أمهم رسالة الله، والرسول محمد عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ما أمره الله بتبليغه، ولم يكتف شياً، ويشهد أن أمته آمنوا به وبجميع النبيين، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ مكث النبي عليه الصلاة والسلام في مكة ثلاث عشرة سنة يستقبل في صلاته المسجد الأقصى (بيت المقدس)، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وهو لا يزال يستقبل المسجد الأقصى، وبعد سنة وأربعة أشهر من الهجرة أمره الله أن يتوجه في صلاته إلى المسجد الحرام (الكعبة المشرفة)، وذلك في السنة الثانية من الهجرة، وكان ذلك اختباراً من الله لعباده، وكان نسخ القبلة شاقاً على النفوس، وسبباً لردة بعضهم عن الإسلام، لكن الله يسر أمر تحويل القبلة على الصحابة رضي الله عنهم، وكان بعض الصحابة قد مات قبل الأمر بتحويل القبلة، فأخبر الله أنه لن يضيع صلاتهم التي صلوها جهة القبلة الأولى، فمعنى: {إِيمَانِكُمْ} أي: صلاتكم، فالصلاة من الإيمان، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٣﴾ الرؤوف من أسماء الله الحسنى، يدل على صفة الرأفة، وهي أعلى معاني الرحمة، وهي رأفة عامة بجميع الخلق في الدنيا، ورأفة خاصة بعباد الله الصالحين. ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كان النبي محمد عليه الصلاة والسلام يحب أن يتوجه في صلاته إلى المسجد الحرام، وكان يدعو الله وينظر في السماء منتظراً نزول الوحي في شأن تحويل القبلة، فأنزل الله هذه الآيات يأمره فيها أن يستقبل في صلاته جهة الكعبة المشرفة التي يرضاها ويحبها، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ ﴿١١٤﴾ أمر الله المسلمين أينما كانوا أن يتوجهوا في صلاتهم إلى جهة الكعبة، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ كان علماء أهل الكتاب يعلمون أن النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي بنى الكعبة بأمر الله، ويعلمون أنها أقدم وأفضل من المسجد الأقصى، ويعلمون أن أمر الله سبحانه نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالتوجه إلى الكعبة حق، وأنه واجب على المسلمين أن يعملوا بما أمرهم الله من التحول إلى استقبال الكعبة المشرفة، وكتب علماء أهل الكتاب ما يعلمون من الحق، واستنكروا ترك المسلمين استقبال المسجد الأقصى. ﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَتَى بِتَابِعِ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ

أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ أي: والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل برهان وحجة على صحة توجهك إلى الكعبة بأمر الله سبحانه ما تبعوا قبلك، فهم متعصبون لقبلتهم ودينهم، لا يتركون قبلتهم التي نشأوا عليها ولو جاءهم الأدلة الواضحة على نسخها ونسخ شريعتهم، وفي هذه الآية حث المسلمين على اتباع العلم الشرعي، والثبات على الحق الذي جاء من عند الله، والتحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب، وأن من اتبع أهواءهم وخالف الوحي فهو من الظالمين لأنفسهم بمخالفة شرع الله، المعرضين أنفسهم لعذاب الله. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ علماء اليهود والنصارى يعلمون أن محمدًا رسول الله، وأن القرآن حقٌّ من عند الله، وطائفة منهم يكتُمون الحق عن أتباعهم، وهم يعلمون الحق ولا يبينونه، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الحق ما جاء من عند الله، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾ أي: الشاكين. ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومُولٌ فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ أي: لكل أمةٍ وشريعة قبله يستقبلونها في صلاتهم، فبادروا الطاعات بلا تأخر ولا تردد، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ أينما يكون الناس بعد موتهم وتفرق أجسادهم يحشرهم الله جميعًا يوم القيامة بقدرته، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من أي موضع خرجت إليه في سفر وغيره فاستقبل جهة الكعبة في صلاتك، وإنَّ استقبال جهة الكعبة في الصلاة هو الحق من الله، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أكد الله سبحانه الأمر باستقبال المسجد الحرام مرة بعد مرة لأهميته، ولتثبته، فما تكرر تقرر، وأمر الله لنبيه أمرٌ لأُمَّته، لكن خصهم بالذكر لأن تحويل القبلة كان شاقًا على النفوس فأكدته، ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: حوّلنا القبلة إلى الكعبة لئلا يحتج اليهود عليكم بأن استقبالكم قبلتهم يوجب عليكم أن تتبعوا دينهم، ولئلا يحتج مشركو العرب عليكم بأنكم تُعظّمون النبي إبراهيم ومع ذلك تتركون استقبال الكعبة التي بناها، إلا الظالمين من اليهود ومشركي العرب المجادلين الذين يزعمون أن المسلمين سيرجعون من دين التوحيد إلى دين الشرك كما رجعوا عن القبلة الأولى، فلا تخشوا الظلمة المتعنتين، ولا حججهم الباطلة، واخشوا الله وحده، ﴿وَلَا تَمَنَّوْا عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَلَا يُبَغِّضَ اللَّهُ وُجُوهَكُمْ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٠﴾ فالله شرع للمسلمين استقبال الكعبة في صلاتهم ليتم عليهم النعمة باكتمال الشريعة، ولعلمهم يهتدون بامثال أوامر الله مهما كانت شاقة على النفوس، فيزيدهم الله هدى، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: كما أتمنا عليكم النعمة باستقبال الكعبة أرسلنا فيكم رسولًا من العرب، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، يتلو عليكم آيات القرآن، ويُطهركم من الشرك والمعاصي والأخلاق السيئة، ﴿وَيَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة،

﴿وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ مما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من أسماء الله وصفاته، وأخبار الأمم الماضية، وعلامات الساعة، وما يكون في الآخرة، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: فاذكروني بألستكم وطاعتكم على ما أنعمت عليكم من نعم دينية ودنيوية أذكركم عند الملائكة، وأذكركم بالخير والرحمة في الدنيا، والثواب والمغفرة في الآخرة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِي ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))، ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ﴿١٥٢﴾ أي: اشكروني بإخلاص على النعم الدينية والدنيوية، الظاهرة والباطنة، الخاصة والعامة، ولا تكفروني بحدود إفرادي بالعبادة أو إنكار نعمتي الدينية أو الدنيوية، أو استعمال النعم في المعاصي، فهما طريقان: طريق الشكر لله، وطريق الكفر، كما قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣]. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ بالنصر والإعانة والتوفيق، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾ الشهداء أحياء في الجنة، كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ((أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، هَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُخُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ))، وحياة الشهداء في البرزخ حياة خاصة ليست كالحياة في الدنيا. ﴿وَلَتَبْلُغَنَّ بَيْنَهُ مِنَ الْخَوْفِ﴾ أي: ولنختبرنكم بشيء قليل أو كثير من الخوف من أعدائكم ومن الأمراض والمصائب، ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مَنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَّتِ﴾ الجوع بسبب الفقر والغلاء، ونقص الأموال بضياعها وسرقتها وخسارة التجارة وموت الأنعام، ونقص الأنفس هو موت الأقارب والأصحاب، ونقص الثمرات بسبب الآفات التي تقع في الزروع والأشجار، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ بشرهم بالخير العظيم في الدنيا والآخرة، فمن صبر ظفر، والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للصابرين. ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ المصيبة الأمر المكروه الذي يقع بالإنسان، ويستحب عند المصيبة أن يقول المسلم هذه الكلمة، ومعناها: إنا جميعًا ملك لله وعبده، يتصرف فينا كما يشاء، وبيتلينا بما شاء وكيفما شاء من البلاء القليل أو الكثير، وإنا إليه راجعون بعد موتنا، وسيحشرنا يوم القيامة للحساب والجزاء، فلن يبقى أحد منا في الدنيا الفانية، ولا بد من المستقر في الجنة أو النار في الآخرة الباقية. ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ثناء من الله عليهم عند ملائكته، وعليهم رحمة بعد رحمة في الدنيا، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ورحمة عظيمة في الآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾، فالصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى بلائه، من صفات المهتدين. ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ﴾ الصفا والمروة الصفا والمروة جبلان معروفان بمكة، ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين بالمسجد الحرام، فالصفا

جبلٌ صغيرٌ لم يبق منه إلا جزء قليل يبدأ منه السعي، والمروة مكان مرتفع كان متصلًا بجبلٍ لم يبق منه أثر، ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ما جعله الله علمًا لطاعته، ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ حجَّ البيت قصده، والمراد بالبيت الكعبة المشرفة، واعتمر أي: زار البيت، والمعتمر الزائر، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: فلا إثم على من يسعى بين الصفا والمروة، وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانوا في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة في الحج والعمرة، فظن بعض الصحابة أن السعي بينهما من أعمال الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية، وبيّن أن السعي بين الصفا والمروة من عبادة الله، ﴿وَمَنْ طَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر من أسماء الله الحسنى، ومعناه: أنه لا يضيع عنده عملُ العابد، بل يضاعف أجره ولو كان عملاً قليلاً، ويثيب عليه الثواب الكثير. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مِنَ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ كَاتِبُونَ﴾ هذه الآية نزلت في علماء اليهود والنصارى الذين يخفون ما في كتبهم من الحق، وهي تعم كل من كتم الحق من علماء هذه الأمة، مثل الذين يُميزون للناس دعاء غير الله من الأنبياء والصالحين والقبور، ولا يبينون لهم أن الدعاء عبادة لا يستحقها إلا الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، واللجنة الطرد والإبعاد من رحمة الله، واللاعنون هم المؤمنون والملائكة، والفعل المضارع يفيد التجدد، فهم يكتمون الحق باستمرار، ويتجدد منهم ذلك، والله يلعنهم لعنة بعد لعنة، ويتجدد لعنهم من الله ومن اللاعنين، فالعلماء الذين يكتمون الحق الذي بينه الله للناس في كتابه هداية الناس، وأخفوه طلبًا لمصالح دنيوية تحصل لهم ببقاء الناس في ضلالتهم؛ عليهم لعنة الله سبحانه، ويستحقون أن يطلب المؤمنون والملائكة من الله أن يلعنهم لعظم جرمهم، وكثرة ضررهم، وضلال الناس بسببهم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فمن تاب من كتمان الحق، وبين للناس معاني آيات القرآن الكريم ليهتدوا بها، وأصلح ما أفسد بقدر استطاعته، فالله يتوب عليه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ جميع الناس يلعنون الكفار الذين ماتوا على كفرهم، فالمؤمنون يلعنونهم في الدنيا، والكفار يلعن بعضهم بعضًا في الآخرة، كما قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضٌ بَعْضٌ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]،

وقال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨]، وفي هذه الآية ردُّ على الذين يزعمون أن اليهود والنصارى ليسوا كفارًا، أو أنهم من أهل الجنة مع تركهم الإيمان بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم، بل هم كفرة ملعونون بنص كتاب الله، قال الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} [البينة: ٦]، وقال سبحانه عن اليهود: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [المائدة: ٧٨]، وقال سبحانه عن النصارى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٧٢، ٧٣]. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: هم خالدون في لعنة الله وفي نار جهنم، مطرودون من رحمته، يُعَذَّبون أبدًا في نار جهنم بلا تخفيف ولا استراحة، ولا يُؤخَّر عنهم عذاب جهنم بعد أن يأتيهم، ولا يُمهلون ليعتذروا، كما قال تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} * بل تأتيهم بغتة فتنبهتهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم يُنظَرُونَ} [الأنبياء: ٣٩، ٤٠]. ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ وَاللَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إلهكم بحق إله واحد، لا معبود بحق إلا الله وحده. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في هذه المخلوقات والنعم العظيمة لدلائل واضحة على توحيد الله سبحانه، ووجوب إفراده بالعبادة وحده، ووجوب شكره على إحسانه، ووجوب الثناء عليه على عظيم صفاته وأفعاله، واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، يخلف أحدهما الآخر كل يوم، ويختلفان في الضياء والظلمة، والحرارة والبرودة، ويختلفان في الطول والقصر باختلاف فصول السنة، والفلك هي السفينة والسفن، تطلق على المفرد والجمع، وينتفع الناس بها في نقل البضائع وصيد الأسماك والسفر وغير ذلك من المنافع، والمطر ينزله الله من السحاب فيحيي بسببه الأرض بعد جفافها، فينبت العشب والزرع والأشجار، وتخرج الثمار، {وَبَثَّ فِيهَا} أي: فرَّق ونشر في الأرض جميع الدواب المختلفة الأنواع والأحجام والألوان، والدَّابة: كل ما يدب على الأرض، {وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ} تحويلها من جهة إلى جهة بقدرة الله، ومجيئها متنوعة بالرحمة أو بالعذاب أو لتلقيح الأشجار، والسحاب المذلل بين السماء والأرض، يسوقه الله إلى حيث يشاء، ففي

هذه الأمور دلالات على وحدانية الله سبحانه لمن ينظر إليها ببصره ويتفكر فيها بعقله. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ يجعلونهم نظراء لله سبحانه وشركاء له في العبادة والتعظيم والمحبة، ﴿يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ المؤمنون أشد حبا لله من محبة المشركين لأهتهم، ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ يعني: حين يرى الظالمون العذاب يوم القيامة يعلمون أن القوة كلها لله وحده، ويعلمون شدة عذابه. ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءُ الْعَذَابِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ يعني: يوم القيامة يتبرأ الرؤساء المتبوعون ممن اتبعهم على الكفر والضلال، وتتباعد الصلوات من الصُّحبة والمحبة والقرابة والعهود بالنصرة، فكل الوسائل التي كانت بينهم في الدنيا تنقطع، ويكونون جميعا في النار. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَةٌ فَنَسَبْنَا لَهُمُ مَنًّا كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ كرهة: أي رجعة إلى الدنيا، ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ندامات، والحسرة الندامة والاعتماد على ما فات، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ يتأيتها النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أباح الله للناس جميعا مسلمهم وكافرهم أن يأكلوا مما في الأرض من الحيوانات والطيور والنباتات والثمار بشرط أن يكون حلالا من كسب مباح لا محرم كالسرقة والغصب، طيبا لم يجرمه الله لخبثه وضرره كالميتة والخنزير، فالحرم نوعان: محرم لذاته، وهو الخبيث ضد الطيب، ومحرم لما عرض له، وهو ضد الحلال، وقيل: ذكر الله كلمة {حَلَالًا} لبيان الحكم الشرعي، وذكر {طَيِّبًا} لبيان علّة حِلِّه، وهو كونه مستطابا للنفوس السّوية، ويؤخذ من هذه الآية أن الأصل في المطعومات والمشروبات الإباحة ما لم يرد دليل يقتضي التحريم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: وساوسه وشبهاته وأعماله التي يأمر بها ويزينها، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَسُوءُ فَعَلَهَا، وَتَسُوءُ عَاقِبَتُهَا لَضَرَرِهَا وَشَرِّهَا، وَيَأْمُرُهُمْ بِمَا عَظُمَ قَبْحُهُ مِنَ الذُّنُوبِ كَالزُّنَا، وَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَكْذِبُوا عَلَى اللَّهِ وَشَرَعَهُ، وَيَحْلِلُوا الْحَرَامَ، وَيَجْرِمُوا الْحَلَالَ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ أي: ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الدِّين، ﴿أُولَئِكَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ في هذه الآية ذم التقليد الأعمى المخالف للهدى، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ أي: صفة الكفار عند دعوتهم إلى الإيمان كمثّل راعي الغنم الذي يصيح بها فتسمع صوته، ولا تفهم ما يقول لها، والدعاء يكون للقريب، والدعاء للبعيد، ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الكفار لا ينتفعون بأسماعهم إذا سمعوا القرآن والعلم والمواعظ، ولا يتكلمون بالحق، ولا يبصرون دلائل الحق، فهم لا يفهمون الحق وينكرونه، ويقبلون الباطل ويتبعونه، ونفى الله عنهم العقل في أمور الدِّين والآخرة، وإن كانوا يعقلون أمور الدنيا الفانية. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلِمَاتٌ مَّا رَفَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِبْرَاهِيمَ تَعْبُدُونَ﴾ أمر الله المؤمنين بالأكل من الطيبات

دون الخبائث، وأن يشكروا الله مخلصين على نعمة الرزق وغيرها من النعم الدنيوية والدينية، والشكر يكون بالقلب واللسان والأعمال الصالحة. ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ حرّم الله على المؤمنين الميتة التي ماتت بغير ذبح، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذُكِرَ عند ذبحه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام والقبور والجن، ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٣٧﴾ اضطر ألقىء، فالضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها بلا زيادة، فمن كان مضطراً للأكل من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذُبح لغير الله فلا حرج عليه، بشرط أن لا يكون راغباً لتناولها وهو يجد غيرها، ولا متجاوزاً قدر الضرورة في أكلها. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يأخذون مقابل إخفاء الحق قليلاً من متاع الدنيا الفانية، ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يكلمهم الله كلام خير ورحمة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم الله في الدنيا من ذنوبهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٣٨﴾ أي: في الآخرة. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ﴿١٣٩﴾ الذين يكتُمون الحق استبدلوا الضلالة بالهدى، وقدموا العذاب على المغفرة، فتعجب الله من أعمالهم السيئة التي نهايتها نار جهنم التي لا يستطيع أحد الصبر على عذابها لحظة! ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٤٠﴾ ذلك العذاب الواقع على من يكتُمون الحق بسبب أن الله نزل الوحي بالحق لبينه العلماء للناس لا ليكتُموه عن الناس، وإن الذين اختلفوا في كتاب الله فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه في اختلاف ومخالفة للحق وابتعاد عن طريق الصواب. ﴿يَسَّ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ البر هو التوسع في الطاعات بصدق وإخلاص، ومعنى الآية: ليس البر في لزوم التوجه في الصلاة إلى أي جهة، ولكن البر برُّ من آمن بالله وآمن بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء وآمن بالملائكة وجميع الكتب التي نزلها الله على رسله وآمن بجميع الأنبياء، وأعطى ماله وهو يحبه أقرابه واليتامى والمساكين والمسافرين المحتاجين والسائلين الصدقات، وأعتق العبيد وحرر الأسرى بماله، وأقام الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها، وأعطى الزكاة الواجبة في ماله مستحقها، والذين يلتزمون بعهدهم مع الله كالنذر وغيره، وبعهدهم مع الناس كعقود العمل والإجارة ونحوها، وأمدح الصابرين في حال فقرهم ومرضهم، وفي حال اشتداد القتال في الجهاد، المتصفون بهذه الصفات هم الصادقون في إيمانهم، وهم المتقون الذين قاموا بما يجب عليهم، وتركوا ما يحرم عليهم، وفي هذه الآية دليل على أنه يجب في مال الأغنياء حقّ سوى الزكاة المقدّرة،

فقد أثنى الله عليهم في أول الآية بإعطاء الصدقات التي لا تقدير فيها، ثم أخبر عنهم بإيتاء الزكاة المقدرة، وقال سبحانه في وصف المتقين: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: ٣]، والفعل المضارع يدل على التكرار والمداومة والتجدد، وفي الصحيحين عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!))، قلت: مَنْ هم يا رسول الله؟! قال: ((هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ))، فمن الخطأ أن يظن الغني أنه إذا أخرج زكاة أمواله مرة في السنة فقد برئت ذمته من كل حق مالي، ولم يعد مطالبًا بإخراج الصدقات، ولا التعاون على البر والتقوى. ﴿يَتَّيَمُّا الَّذِينَ أَمْوَالُهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرض ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ القصاص الأخذ من الجاني مثل ما جنى، وقتل القاتل بالقتيل، ﴿لَقَرْ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي: يُقتل الجاني الحر قصاصًا بالحر الذي قتله، ويُقتل الجاني العبد قصاصًا بالعبد الذي قتله، وتُقتل الجانية الأنثى قصاصًا بالأنثى التي قتلتها، فلا يُقتل غير القاتل، ولا يُقتل اثنان مقابل واحد، ولا يُقتل حرٌّ بريء مقابل عبد مقتول، ولا يُقتل حرٌّ بريء مقابل أنثى مقتولة، كما كان يصنع أهل الجاهلية، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: إذا عفا أولياء المقتول عن القاتل، فتركوا المطالبة بالقصاص، وطلبوا من القاتل دفع الدية، فالواجب على أولياء المقتول أن يطلبوا الدية بالمعروف شرعًا بلا عنف ولا تعنت، وعلى القاتل أن يدفع إليهم الدية بإحسان بلا مماطلة، ولا نقص، ولا إساءة بقول أو فعل، وهذه الآية تدل على أن القتل العمد كبيرة من الكبائر لا يخرج صاحبها من الإيمان إذا لم يستحل قتل أخيه المؤمن، فقد أثبت الله بقاء الإخوة بينهم مع حصول القتل، وقال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ٩، ١٠]، فقد يحصل قتالٌ وبغى بين المؤمنين، ومع ذلك سماهم الله جميعًا مؤمنين وإخوة، وأمر بالإصلاح بينهم، ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: إباحة العفو عن القاتل وأخذ الدية بدل القصاص تخفيف من الله لهذه الأمة، ورحمة منه بعباده، ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بِكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨) أي: فمن اعتدى بعد العفو فله عذاب أليم، سواء كان المعتدي أحد أولياء المقتول بأن يقتل القاتل بعد العفو عنه وأخذ الدية منه أو يضربه ويؤذيه، أو كان المعتدي القاتل بأن يعتدي على أولياء المقتول بالقتل أو الضرب والإيذاء. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: لكم في مشروعية القصاص حياة عظيمة، فينجز من يريد قتل غيره إذا علم أنه سيقتل قصاصًا، وفي ذلك حياة له ولمن كان يريد أن يقتله، فالعمل بالقصاص الذي شرعه الله في النفوس والجروح سببٌ عظيم لتحقيق الأمن في

المجتمعات، ﴿يَأْتُوا إِلَى الْأَلْبَتِ لِمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يعني: يا أصحاب العقول. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾ أي: فرض الله على من حضره الموت بعلاماته ومقدماته إن ترك مالا كثيرا أن يوصي لوالديه وأقاربه الذين لا يرثونه بالمعروف شرعًا، بلا قصد حرمان الورثة، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب لغير حاجة، وبينت السنة النبوية أن الوصية تكون في حدود ثلث المال وأقل، ولا تجوز الزيادة على الثلث إلا إذا رضي الورثة، وهذه الآية منسوخة عند جمهور المفسرين، فكانت الوصية واجبة ثم نُسخت بآية الموارث، وبقي استحباب الوصية للوالدين إذا كانا كافرين لا يرثان ولدهما المسلم، فيوصي لهما ولدهما، وتُستحب الوصية أيضًا للأقارب المحتاجين الذين لا يرثون الميت إن كان ماله كثيرًا، وأما الأقارب الوارثون فلا تصح الوصية لهم، فقد أعطاهم الله حقهم في آيات الموارث، قال الله تعالى: { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا } [النساء: ٧]، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِرِثٍ)) رواه أبو داود وحسنه الترمذي. ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنبَأَ آتَمُهُ عَلَى الَّذِينَ بَدَّلُوهُ﴾ أي: فمن بدل الوصية بالزيادة أو النقص أو التغيير بعدما سمعها من الموصي فالإثم على الذين بدلوها، سواء كان المغيّر للوصية واحد أو أكثر. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: فمن خاف من الموصي ميلاً عن الحق على سبيل الخطأ بلا تعمد أو تعمد الإثم بمخالفة المشروع في الوصية كأن يضار الورثة بالوصية مع قلة ماله أو يوصي بأكثر من ثلث ماله؛ فلا إثم على من بدل الوصية الخاطئة إلى الصواب للإصلاح بين الموصي والورثة، سواء كان تبديل الوصية إلى الصواب في حياة الموصي أو بعد موته. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: فرض الله على المؤمنين والمؤمنات الصيام كما فرضه على الأمم السابقة، والمقصود من الصيام تحقيق التقوى، وتقوى الله هي: امتثال الواجبات، واجتناب المحرمات، والتوبة من السيئات، وبالتقوى يكون المسلم شاكراً لله على نعمه الدينية والدينية، الظاهرة والباطنة، فلا يعصي الله بما أنعم عليه، بل يعبد الله شكراً على نعمه، قال الله تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [آل عمران: ١٢٣]، والمراد من الصيام أن يكون الصائم من المتقين، وأن يكون من الشاكرين، قال الله تعالى: { وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة: ١٨٥]. ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ شهر رمضان ثلاثون أو تسعة وعشرون يوماً سرعان ما تنقضي، فعلى المسلم أن يغتنمها في طاعة الله، وهكذا عمره أيام معدودات، والموفق من اغتنم عمره في الطاعات قبل موته. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

أي: من كان في شهر رمضان مريضاً مرضاً يُرجى بُرؤه فليُفطر ثم يقضي الأيام التي أفطرها، وكذلك المسافر إن أفطر في سفره فعليه أن يقضي ما أفطره من الأيام، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كان في أول الإسلام الصيام بالخيار، فمن كان يستطيع الصيام إما أن يصوم وإما أن يفطر ويُطعم عن كل يوم أفطره مسكيناً، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ أي: من كان يستطيع الصيام فأفطر وأطعم أكثر من مسكين عن كل يوم أفطره فهو خير له، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الصيام للمستطيع خير من الفطر والإطعام، ثم نسخ الله هذا الحكم في الآية التي تليها، وأوجب الصيام على الذين يطيقون الصيام، وبقي حكم هذه الآية للعاجز عن الصيام لكبر سنٍ أو مرضٍ لا يُرجى بُرؤه، فهم الذين يُفطرون ويُطعمون عن كل يوم مسكيناً. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: شهر رمضان أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وابتدئ إنزاله على النبي عليه الصلاة والسلام في ليلة القدر وهو في غار حراء، فرمضان هو شهر القرآن، ويُستحب الإكثار فيه من تلاوة القرآن ومدارسته، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ أي: القرآن هدى للناس من كل ضلالة، وآياته تبين الهدى في كل الأمور، والقرآن يفرق بين الحق والباطل، ففيه الرد على كل باطلٍ، وهو العلم لمن أراد العلم، والموعظة لمن أراد الموعظة، والتذكرة لمن أراد تذكر ما ينفعه في دينه ودنياه، ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: من كان صحيحاً مقيماً في شهر رمضان فيجب عليه الصيام، وهذه الآية نسخت التخيير المذكور في الآية السابقة، فوجب على كل مسلم بالغ عاقل أن يصوم رمضان، ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أعاد الله هذا الحكم حتى لا يُظن أنه منسوخ كما تُسخ التخيير في الآية السابقة، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ أي: يريد الله بعباده اليسر في دينهم ودنياهم، فأباح للمريض والمسافر الفطر في رمضان، وجعل شريعته سمحة لا حرج فيها، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة، والمشقة تجلب التيسير، ومراعاة الحاجة لها أثر في الأحكام الشرعية، ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: يريد الله أن تكملوا عدد أيام شهر رمضان كاملاً بالصيام حتى تروا الهلال، ومن أفطر بسبب المرض أو السفر قضى الأيام التي أفطرها حتى يكمل شهر الصيام كاملاً بلا نقصان، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: يريد الله منكم بعد انقضاء شهر رمضان أن تكبروه بسبب ما أنعم عليكم في شهر رمضان من نعمة كثيرة في دينكم ودنياكم، وأعظمها نعمة الهداية للإسلام والصيام والصلاة والقرآن، ويُشرع التكبير من ليلة عيد الفطر إلى أن يصلي المسلمون صلاة العيد، فيكبرون الله بألسنتهم، ويعظمون الله في قلوبهم، ويعظمون أمره ونهيه في رمضان وبعد رمضان، لعلهم يكونون من الشاكرين الله على نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَانٌ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨١﴾ من أسماء الله الحسنى القريب، فهو قريب من عباده بعلمه وقدرته، وهو مع قربه في السماء مستور على عرشه لا يخفى عليه شيء من خلقه، أمر عباده بدعائه وحده، ووعدهم بإجابة دعائهم إذا أخلصوا له، وأمرهم أن يستجيبوا له بطاعته في أمره ونهيه، وأن يؤمنوا به رباً ومعبوداً واحداً لا شريك له لعلهم يهتدون إلى الصواب في أمور دينهم ودنياهم. ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ حين شُرِعَ الصيام في أول الإسلام كان لا يجوز للنساء إذا نام في الليل أن يأكل شيئاً إلى اليوم الثاني، وكان لا يجوز للرجل معاشرته امرأته في ليالي الصيام، ثم رخص الله للمسلمين أن يأكلوا في جميع ليالي الصوم إلى طلوع الفجر، وأحل لهم ما كان محرماً عليهم من جماع نساءهم في ليالي الصيام، ﴿هُنَّ لِيَأْسُ لَكُمْ وَانْتُمْ لِيَأْسُ لَهُنَّ﴾ أي: كيلا الزوجين سترٌ للآخر كاللباس الذي يستر العورة ويحفظها، ويزين الإنسان وينتفع به، فمصالح الزواج عظيمة، فالمشروع تيسير الزواج، وحل مشاكل الأزواج، والإصلاح بينهم، ومسامحة كل من الزوجين الآخر على تقصيره، بقاء الإنسان بلباسٍ فيه عيوبٌ يسيرة خيرٌ من بقاءه عارياً، وكل من الزوجين لباس للآخر، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَانظُرُوا إِلَيْكُمْ﴾ أي: علم الله أن بعض المسلمين جامعوا زوجاتهم في ليالي الصيام، فتاب الله عليهم فلم يؤاخذهم بهذه المعصية والخيانة التي ظلموا أنفسهم بها، وترك الله إلزامهم بهذا الحكم الشديد، فأباح لهم مباشرة زوجاتهم بالجماع في ليالي الصيام، وصار الحكم الأول منسوخاً، والمباشرة هي الجماع، سمي بذلك لمس البشرة البشرية، والبشرة ظاهر الجلد، ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أمر الله المسلمين أن يطلبوا ما كتب الله لهم من خير الدنيا والآخرة بفعل الأسباب، فيطلبون بالجماع قضاء الشهوة والذرية الصالحة، ويطلبون بقيام ليالي رمضان الأجر وليلة القدر، ويطلبون بالطعام والشراب صحة الأجسام والقوة على العبادة وعمل الخير الديني والدنيوي، ويطلبون بالسعي في الكسب الرزق الحلال، ويطلبون بالتداوي الشفاء من الأمراض، وهكذا يطلبون النصر والتمكين بالأسباب الحسية والمعنوية، لا بالتواكل أو انتظار المهدي، فأمرنا الله بطلب ما كتبه الله لنا شرعاً أو قدرًا، فلا بد من فعل الأسباب المباحة التي يسرها الله لعباده لتحقيق المصالح الدينية والدنيوية، الخاصة والعامة، فما أعظمها من وصية! ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: وكلوا واشربوا في ليالي الصيام حتى يتبين لكم - أنتم أيها الصائمون - طلوع الفجر الصادق ببياض الفجر وانفصاله عن سواد الليل، فالخيط الأبيض بياض النهار، والخيط الأسود سواد الليل، ﴿ثُمَّ آتُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي: ثم أكملوا الصيام بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق حتى غروب الشمس، وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا - وأشار

بيده إلى المشرق -، وأدبر النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا - وأشار بيده إلى المغرب -، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمِ))، ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ المعتكف في المسجد إذا ذهب إلى بيته لحاجة لا يجوز له أن يجامع زوجته، فهو في حكم المعتكف إن خرج من المسجد لحاجة، وجماع الزوجة يُبطل الاعتكاف، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَتَّقُوا﴾ أي: تلك الأحكام المذكورة في آيات الصيام هي ما حرمه الله وبيَّنه لعباده كالأكل والشرب والجماع في نهار رمضان، والجماع حال الاعتكاف، ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان الواضح الجلي لأحكام الصيام يبين الله آياته للناس لعلهم يتقونه بفعل أوامره وترك نواهيه. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني بالظلم والسرقه والخداع والغش والخيانة والكذب والربا والرشوة وغير ذلك ﴿وَتُدَلُّوا بِهَا إِلَى الْفُكْهِامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتوصلوا بدفع الرشوة للقضاة ونحوهم إلى أخذ ما لا يحل لكم، وتخاصموا الناس بالحجج الباطلة لتأكلوا بعض أموالهم بغير حق وأنتم تعلمون أنكم ظالمون لهم. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ جَمْعًا هَلَالًا، وَالْهَلَالُ يَكُونُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ إِلَى اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ، ثُمَّ يُسَمَّى الْقَمَرِ، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ والمواقيت جمع ميقات، فالله جعل هيئة القمر تتغير كل شهر ليعرف الناس شهر الصيام وغيره من الشهور وعدة النساء والإجارة والعقود وعدد السنين وأوقات الحج، ﴿وَلَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كانت الأنصار في الجاهلية إذا رجعوا من الحج أو العمرة لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، ولكن يدخلون من ظهور البيوت، من السطح أو من نافذة خلف البيت، ويرون ذلك من الطاعة وتمام الحج، فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الطاعة في تقوى الله بامتثال ما شرعه الله، وأمرهم أن يدخلوا البيوت من أبوابها، ويؤخذ من الآية مشروعية ترك البدع والخرافات، وتحصيل الأمور بطرقها المعروفة شرعاً وعرفاً. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا أَعْنَاقَكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي: قاتلوا مخلصين لأجل الله ودينه، ونصرة عباده المستضعفين، ويكون قتالكم للذين يقاتلونكم دون من لا يقاتلكم من النساء والأطفال والشيخ والمرضى والرهبان ونحوهم، ولا تجاوزوا الحد المباح في الجهاد فتقعوا في الغدر والخيانة والغلول والتمثيل بجثث الأعداء أو الاعتداء على من لم يقاتلكم بالقتل أو الضرب أو الحبس أو الشتم، ﴿وَأَقْتُلُواهُمْ حَيْثُ نَفَسْتُمْهُمْ﴾ أي: واقتلوا كفار قريش في أي مكان وجدتموهم فيه، وتمكنتم من قتلهم، ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ﴾ أي: وأخرجوا كفار قريش من مكة التي أخرجوكم منها، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة في الدين بالشرك بالله والكفر، وصد الناس عن الدخول في دين الله والاستقامة عليه أعظم ضرراً من القتل الذي يقع في المسلمين والكافرين بسبب الجهاد، فيُقدَّم دفع المفسدة في الدين على دفع المفسدة في

الدنيا، ورتكب أخف المفسدتين لدفع أشدهما، ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ كَافِرُونَ﴾ جزاء الكافرين ﴿١١١﴾ المسجد الحرام يحرم فيه القتال، فهى الله الصحابة عن قتال كفار قريش عند المسجد الحرام حتى يبدؤهم بالقتال فيه، ﴿فَإِنْ أَنْبَأْتُمْ أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٢﴾ أي: فإن ترك كفار مكة قتال المسلمين وأسلموا فإن الله الرحيم يغفر لهم ويقبل توبتهم، والغفور من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الساتر على التائبين ذنوبهم، فيمحوها عنهم كأنهم لم يعملوها. ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: وقتلوا كفار مكة حتى لا تكون فتنة بسبب الشرك والمشركين، وتكون العبادة والطاعة لله وحده، ﴿فَإِنْ أَنْبَأْتُمْ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ أي: فإن ترك كفار مكة الشرك وأسلموا فلا يجوز الاعتداء على البريء، ولا يكون التعدي بالقتل والضرب والحبس والشتم إلا على الظالمين المستحقين للعقوبة، وسميت عقوبتهم عدواناً من باب المقابلة لفعلهم. ﴿أَلَسْتُمْ كُفْرًا بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، يحرم فيها ابتداء القتال، فإن قاتل الكفار المسلمين فيها فليقاتلهم فيها، ﴿وَأَلْمَزْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَصَاصُّونَ﴾ القصاص مقابلة الفعل بمثله، والمعنى: من انتهك تعظيم الشهر الحرام أو المسجد الحرام فإنه يقتص منه ويُعاقب بما يستحق ولو كانت العقوبة في الشهر الحرام والمسجد الحرام، ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدِدُوا عَلَيْهِمْ مِمَّا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقتص من المعتدي بالعدل بمثل عدوانه بلا زيادة في عقوبته، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ الله مع المتقين بالنصر والمعونة، فمن أسباب النصر: تقوى الله. ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ روى الترمذي وصححه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: (أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصره، قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصره، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية يرد علينا ما قلنا، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وترك الجهاد، فترك الجهاد وترك النفقة في الإعداد للجهاد مفسدة عظيمة، وهلاك للأمة، فيتسلط الكفار والمنافقون على المسلمين، ويفتنوهم عن دينهم، ويفسدون دنياهم، ويتحكمون في أمورهم وثرواتهم، ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ أمر الله عباده بالإحسان في عبادته، والإحسان في معاملة الناس، بالصدقات وأنواع المعروف ولو بالكلمة الطيبة وحسن الأخلاق. ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: بإخلاص بلا رياء ولا سمعة، فمن شرع في الحج والعمرة فيجب عليه إتمامها وإن كانا تطوعاً، ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَاسْتَيْسِرْ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: إن منعتهم من إتمام الحج والعمرة بسبب مرض أو عدو أو غير ذلك فاذبحوا ما تيسر من الأنعام للمساكين، والهدى ما يهدى إلى البيت الحرام من الإبل والبقر والغنم، ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُسُوكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ يعني: لا تتحلوا من الإحرام بخلق رؤوسكم حتى يبلغ الهدى الذي يحل فيه نحره،

وهو في حق المحصر المكان الذي عجز فيه عن إتمام الحج والعمرة، وفي حق غير المحصر الحرم كله، ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي: فمن احتاج لحلق رأسه وهو محرم بسبب مرض أو قمل يؤذيه في رأسه ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فدية من انتهك بعض محظورات الإحرام لحاجة: صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة، هذه الفدية بالتخيير، وجاء بيانها في حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه في الصحيحين، ﴿فَإِذَا آمَنْتُمْ مِنْكُمْ فَامْتَنِعُوا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يُخَيَّرُ من يريد الإحرام بالحج بين ثلاثة أنواع هي: التمتع، والإفراد، والقران، فالتمتع: أن يُحْرِمَ بالعمرة وحدها في أشهر الحج، فإذا وصل مكة طاف وسعى للعمرة وحلق شعر رأسه أو قصره، فإذا كان يوم الثامن من شهر ذي الحجة أحرم بالحج وحده، وأتى بجميع أفعاله، وعليه ذبح هدي، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله. والإفراد: أن يُحْرِمَ بالحج وحده، فإذا وصل مكة طاف للقدوم ثم سعى للحج، ولا يخلق ولا يُقَصِّرُ، ويبقى محرماً حتى يحلَّ بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد، والهدي الواجب على المتمتع والقارن شاة تجزئ في الأضحية أو سُبُعٍ بعيرٍ أو سُبُعٍ بقرة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، ويجوز أن يصومها متتابعة أو متفرقة، ويبدأ بصيام الأيام الثلاثة بعد الإحرام بالعمرة أو بعد الانتهاء من العمرة إن كان متمتعاً، ﴿ذَلِكَ لِئِنْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ مُرِيدٌ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ فَالْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يجب الهدى على المتمتع والقارن إذا كانا من ساكني المسجد الحرام، فأهل مكة ومن استوطنها من غير أهلها إن حجوا متمتعين أو قارنين لا هدي عليهم، ولهم أن يحجوا مفردين، وحاضرو المسجد الحرام هم أهل الحرم ومن كانوا قريبين منه بحيث لا يكون بينهم وبين الحرم مسافة تُعَدُّ سفراً، وقيل: هم أهل الحرم فقط. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أي: أشهر الحج أشهر معلومات، وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فيجوز الإحرام بالعمرة من أول شهر شوال لمن أراد الحج متمتعاً، ويجوز الإحرام بالحج من أول شهر شوال لمن أراد الحج مفرداً أو قارناً، ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: من أزم نفسه الحج بالشروع في الإحرام فليجتنب الرفث وهو جماع النساء ومقدماته القولية والفعلية، وليجتنب الفسوق، فلا يقع في المعاصي ومنها محظورات الإحرام، وليجتنب المجادلة والمخاصمة أثناء الحج، ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَكَرَّوْهُ قَاتِ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيُّ وَتَقَوْنَ بِنَأْوِي الْأَلْتَبِ﴾ كان بعض العرب يحجون من غير زادٍ فأمر الله الحجاج بالترود للسفر بالمال والطعام ونحو ذلك، وبين الله أن خير الزاد التقوى، وهي امتثال الواجبات، واجتناب المحرمات، والتوبة من السيئات، وهي زاد الآخرة الموصل إلى الجنة. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لا إثم عليكم في التجارة وأنتم محرمون بالحج،

﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي: فإذا دفعتم وخرجتم من عرفات بكثرة وازدحام بعد غروب شمس يوم عرفة متجهين إلى مزدلفة، وهي المشعر الحرام، سمي مشعراً لما فيه من الشعائر، وهي معالم الدين والعبادة كالصفا والمروة، ومعنى الحرام: المحرم الذي يحرم فيه الصيد وغيره من محظورات الإحرام، أمر الله الحجاج أن يذكره عند المزدلفة، فإذا وصل الحاج مزدلفة صلى المغرب والعشاء جمع تأخير، ويبقى ليلة العيد بمزدلفة في أي مكان منها، ثم يصلي الفجر يوم العيد بمزدلفة، ويكثر من ذكر الله ودعائه بعد صلاة الفجر، ويخرج من مزدلفة قبل طلوع الشمس متجهاً إلى منى لرمي جمرة العقبة، ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: اذكروا الله شكراً على هدايته لكم في مناسك الحج وغيرها وإن كنتم قبل هدايته لكم ضالين عن الحق في أمور الحج وغير ذلك، ﴿ثُمَّ أَنْفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كان العرب في الجاهلية يحجون، وكان كفار قريش لا يقفون يوم عرفة بعرفات لأنه خارج الحرم، ويقفون في مزدلفة وهي من الحرم، ويقولون: نحن أهل الحرم لا نخرج منه في الحج، ونُفِض من مزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا مع الناس في عرفات، ويفيضوا من عرفات مثل بقية الحجاج، وثم في هذه الآية ليست للترتيب، بل لعطف جملة على جملة. ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا﴾ كان العرب بعد إتمام مناسك الحج يجتمعون للتجارة ومناشدة الأشعار وذكر مناقب الآباء والأجداد، فأمرهم الله إذا أتوا مناسك الحج أن يكثروا ذكر الله أكثر من ذكر آبائهم وأجدادهم، ﴿فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: نصيب، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ذم الله من لا يسأله إلا الدنيا، وأثنى على من يسأله خير الدنيا والآخرة، وحسنة الدنيا تشمل العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال والعافية وطيب النفس والقناعة والزوجة الصالحة والذرية الطيبة، وحسنة الآخرة الجنة، وهذا الدعاء من أفضل الأدعية القرآنية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ الصالحون الذين يدعون الله بهذا الدعاء العظيم لهم نصيب من ثواب أعمالهم الصالحة ومما سألوا الله من خير الدنيا والآخرة، بحسب إخلاصهم وأحوالهم، وما يشاء الله أن يعطيهم، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الله سبحانه سريع المحاسبة لعباده في الدنيا والآخرة، فهو يحصي أعمالهم، والدنيا أمد فسرعان ما تنقضي أعمارهم، ويوم القيامة يحاسب الله جميع الخلائق أولهم وآخرهم في وقت يسير. ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ الأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة، وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، فبييت الحجاج بمنى ليالي أيام التشريق الثلاثة، ويرمون الجمرات الثلاث في كل يوم من أيام التشريق

بعد زوال الشمس، كل جمرة يرمونها بسبع حصيات، يكبرون الله مع كل حصاة، ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ للحاج أن يكتفي برمي الجمرات في يومي الحادي عشر والثاني عشر ثم ينصرف من منى إلى مكة قبل غروب الشمس، وإن شاء تأخر فيبيت بمنى ليلة الثالث عشر، ثم يرمي الجمرات الثلاث بعد زوال الشمس في اليوم الثالث عشر، فلا حرج على من تعجل في يومين أو تأخر إلى اليوم الثالث، وهذه الرخصة للحاج في التعجل في يومين أو التأخر هي لمن اتقى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لا سيما ما يتعلق منها بالحج، وقيل: المعنى من تعجل في يومين يرجع من الحج ولا إثم عليه، ومن تأخر يرجع من الحج ولا إثم عليه، وهذا الفضل العظيم بمغفرة الذنوب للحجاج يكون لمن اتقى الله سبحانه، وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ فَلَمْ يَزُفْهُ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) أمر الله الحجاج بعد انتهاء حجهم وانصرافهم إلى بلدانهم أن يتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن يستمروا على طاعته أينما كانوا، وأمرهم أن يعلموا أن الله سيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُتَّهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ. وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٥) بعض المنافقين فصيحٌ يعجب سامعه، وكلامه حسنٌ فيما يتعلق بأمر الدنيا، ويكذب على الناس فيحلف لهم أن الله يعلم ما في قلبه من حسن النية، وأن الذي في قلبه موافق للسانه، ويظهر للناس غير ما يخفيه، وهو شديد الخصومة والجدال بالباطل، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وإذا انصرف من عند المسلمين الذين يخادعونهم بكلامه اجتهد في الإفساد في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، وإتلاف الزروع والثمار، وقتل أطفال الناس وما نتج من الحيوانات، وكذا إذا صار والياً وترأس على الناس أفسد في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، وتشمل الآية من يشعل الحروب التي تتسبب في تدمير بيوت الناس وأسواقهم، وتعطيل مصالحهم، وهلاك البساتين، وقتل الناس والحيوانات، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٢٥) الله لا يحب جميع أنواع الفساد الحسي والمعنوي، ولا المفسدين، ويجب الإصلاح والمصلحين، وفي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله سبحانه كما يليق بجلاله، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ العزة الأنفة والحمية، يعني هذا المنافق المفسد متكبر، لا يقبل النصيحة، ويصر على الكفر والظلم والفساد، ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهَآءُ أَي: فيكفيه نار جهنم عقوبة له، وبئس الفراش جهنم. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْغَافِلِينَ﴾ (٢٧) أي: يبيع نفسه طلباً لرضا الله عنه، وهم المؤمنون المخلصون، الذين يبذلون أنفسهم في سبيل الله، بالجهاد والدعوة والتعليم. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السِّلْم بفتح السين وكسرهما قراءتان، ومعناها

واحد بمعنى الإسلام والصلح، أي: ادخلوا في شرائع الإسلام عامة، ولا تضيعوا شيئاً منها، وادخلوا جميعكم في الصلح سواء الصلح بين المسلمين أو الصلح بين المسلمين والكافرين إذا اقتضت المصلحة الشرعية المصالحة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٨) أي: لا تطيعوا الشيطان فيما يأمركم به من ترك بعض شرائع الإسلام كالجهاد أو رفض المصالحة التي فيها مصلحة الإسلام والمسلمين فتخالفوا الجماعة، فالشيطان ظاهر العداوة لكم فاحذروا وساوسه. ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٩) أي: فإن أخطأتم بعد أن علمتم آيات الله الواضحة فتركتكم بعض شرائع الإسلام أو خالفتكم جماعة المسلمين فاعلموا أن الله عزيز حكيم فسينتقم منكم متى شاء بمقتضى حكمته. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ينظرون: ينتظرون، ظلل: جمع ظلّة، وهي ما غطى وستر، والغمام سحب أبيض، هذه الآية من آيات الصفات، تؤمن بها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف ولا تمثيل، والله أعلم بكيفية مجيئه يوم القيامة في ظلل من الغمام، آما به كل من عند ربنا، والله ليس كمثلته شيء، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ (٣٠) أي: فرغ الله من الحكم بين العباد وحسابهم ومجازاتهم بالعدل، وإلى الله ترجع جميع الأمور في الدنيا والآخرة، فهو الذي يدبر الأمر، ويحكم بين عباده. ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كَفَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَمَنْ يَبْدَلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣١) أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يسأل علماء اليهود عما أعطاهم الله في التوراة من الآيات الواضحة المبينة للحق، والتعم العظيمة التي خصهم بها، والمعجزات الكثيرة التي أيد بها موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك كفر أكثر بني إسرائيل، فلا عجب إن كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام المبشر به في التوراة، ومن يعرض عن نعمة الإسلام فلا يدخل فيه بعد أن بلغه فإن الله شديد العقاب لمن اختار الكفر على الإيمان، والمعصية على الطاعة. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنْ آلِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الكفار مفتونون بالدنيا الفانية، يرغبون فيها أعظم الرغبة، ويتنعمون فيها المكاثرة والمفاخرة والمباهاة، ويستهنون من المؤمنين الذين يرجون ثواب الآخرة، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المتقون فوق الكافرين يوم القيامة، فالمتقون في الجنة، والكفار في أسفل سافلين في جهنم، ﴿وَاللَّهُ يَرُؤُكَ مِنْ يَسَاءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٢) الله يرزق في الدنيا من يشاء رزقاً كثيراً بلا تقدير ولا عدد، سواء كان مؤمناً أو كافراً، ويرزق المؤمنين في الجنة رزقاً عظيماً واسعاً لا ينقطع. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَعَشَّ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مَسْبَرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿٤٤﴾ أي: كان الناس منذ عهد أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام متفقين على دين واحد، وهو الإسلام دين التوحيد، ثم طرأ عليهم الشرك واختلفوا، فبعث الله النبيين يأمرون الناس بعبادة الله وحده، وينهونهم عن الشرك، ويُشرون من وُحِدَ اللهُ وأطاعه بالجنة، وينذرون من عصاه وعصى رسله بالنار، وأنزل الله مع الرسل الكتب الإلهية المشتملة على الحق ليحكم الكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه من أمور الدين والدنيا، فيتبين للناس الحق في جميع خلافاتهم الدنيوية والدنيوية، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقال عز وجل عن القرآن الكريم: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي: ما اختلف في كتب الله إلا الذين أنزلت عليهم ليعملوا بها ويتحاكموا إليها، فاختلفوا مع وضوح الحق في كتب الله، فخالفوها بسبب الظلم والحسد فيما بينهم والحرص على الدنيا، ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٩٣]، فهدى الله المؤمنين إلى الحق الذي اختلف الناس فيه، فعرف المؤمنون الحق الذي بينه الله في كتابه، واتبعوه ولم يتبعوا أهواءهم، ووقوع الخلاف والهداية والضلالة كل ذلك بمشيئة الله وتقديره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٣]، والله يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور: ٢١]، ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْأَسَاءَةِ وَالضَّرَّةِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [آي: أنتظنون - أيها المؤمنون - أن تدخلوا الجنة دون أن يصيبكم في الدنيا بلاء وشدة كما أصاب المؤمنين الذين مضوا قبلكم؟! لا تظنوا ذلك، فالدنيا دار اختبار، ولا بد أن يختبركم الله فيها بما يشاء؛ ليعلم الله الصابرين والصادقين والمجاهدين، فالمؤمنون من الأمم السابقة قبلكم أصابهم الفقر الشديد، وأصابتهم الأمراض المتنوعة، وزلزلوا أي: حُوفوا وحُركوا بالشدائد من جهة أعدائهم، حتى تساءل الرُّسل والمؤمنون معهم: متى ينصرنا الله على الكافرين؟! ونصر الله للمؤمنين قريب، في الوقت الذي يقدره الله فلا تستعجلوه. ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْإِقْرَابِينَ وَالْيَتَامَى

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾ أي: يسألك أصحابك - أيها النبي - عن قدر الصدقات ولمن يعطونها فقل لهم: أيُّ صدقةٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ فأعطوها الأب والأم وسائر الأقارب واليتامى والمساكين والمسافر المحتاج، وأيُّ معروفٍ تفعلونه فالله يعلمه وسيجازيكم عليه. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: فرض الله عليكم الجهاد في سبيل الله وأنتم تكرهونه، لما فيه من مشقةٍ بالغةٍ وخوفٍ عظيمٍ وتعرضٍ للقتل والجراح والأسر، لكنه خير لكم وللأمة، فبالجهاد يُدفع شر الكافرين، ويُنشر الدين، وتحصل العزة للمؤمنين، والتمكين في الأرض ونصر المستضعفين، والجهاد سبب للفوز بالشهادة وتكفير السيئات وحصول الأجر العظيم ونيل الدرجات العالية في الجنات، وفي ترك الجهاد شر عظيم في الدين والدنيا، فيتسلط الكافرون على المسلمين، ويفسدون دينهم ودنياهم، ويتحكمون في أمورهم وثرواتهم. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمِ فَتَقَالَ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن حكم القتال في الشهر الحرام، والأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية عليها عبد الله بن جحش رضي الله عنه فوجدوا قافلة لكفار قريش، فقاتلوهم في آخر يوم من شهر رجب، وقتلوا من الكفار رجلاً، وأسروا رجلين، وغنموا، فسألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن حكم قتالهم الكفار في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية، ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: القتال في الشهر الحرام إثم عظيم، فلا يجوز القتال فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرًا بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: صدُّ كفار قريشٍ الناس عن الإسلام، وكفرهم بالله، {والمسجد الحرام} أي: صدُّ عن المسجد الحرام، يعني: ومنع كفار قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام للعمرة والحج والطواف والصلاة، وإخراجهم أهل مكة من المسجد الحرام لإيمانهم بالله أكبر إثمًا عند الله من القتال في الشهر الحرام، فالفتنة بالكفر وصد الناس عن الإسلام وصد المسلمين عن العبادة في المسجد الحرام وإلجائهم إلى الهجرة وترك مكة أعظم إثمًا من القتل الذي وقع من سرية المسلمين في الشهر الحرام، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْنَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ هذه الآية وإن نزلت في سبب خاص إلا أنها عامة، فالكفار في كل زمان لا يزالون يقاتلون المسلمين ليردوهم عن دين الإسلام، ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ دِينًا عَنْ دِينِهِ فِيمَتٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧١﴾﴾ حبطت أعمالهم أي: بطلت، وفي هذه الآية تحذير من الردة عن الإسلام، وأنها قد تقع من بعض المسلمين، وأن من أسبأها سماع شبهات الكفار ومخالطتهم،

وفيها أن العبرة بالخاتمة، فالكافر أو المرتد إذا تاب صادقاً قبل موته تُقبل توبته، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧) أي: إن الذين آمنوا وتركوا بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين ليعبدوا الله ويقيموا دينه، وجاهدوا الكفار في سبيل الله أولئك يرجون أن يرحمهم الله بعد أن عملوا بأسباب الرحمة، والله يغفر لهم ما يقع منهم من خطأ في الجهاد وغيره، وهذه الآية نزلت في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنهم الذين أخطأوا بالقتال في الشهر الحرام، وهي عامة لجميع المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، فمن غلب خيره شره فهو على خير، ومن كثرت حسناته وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يُحتمل له ما لا يُحتمل لغيره من الأخطاء، ومن كان متبعاً لسبيل المؤمنين متحريراً الحق بقدر استطاعته ثم أخطأ في العلم أو العمل فالواجب أن يُعذر ويُصحح، ولا تُهدر حسناته، ولا تُنسى فضائله، والله غفور رحيم بعباده، ولا أحد يسلم من الخطأ والنقص والتقصير. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (١٦) أي: يسألك الصحابة عن الخمر والقمار، قل لهم: فيهما إثم كبير وكثير، وفيهما منافع للناس كالتجارة في الخمر والريح في الميسر، ومفاسدهما أعظم من النفع المرجو منهما، فهما سبب للعداوة والبغضاء، ويُلهيان الإنسان عن ذكر الله وعن الصلاة، والخمر كل ما يُزيل العقل ويُسكر الإنسان، وهي أم الخبائث، وباب المنكرات، ومثل الخمر المخدرات، بل هي أشد إثمًا وأكثر مفاسد، والقمار كل ما فيه مخاطرة بالعلم أو العرم، سواء كان بيعاً أو لعباً أو غير ذلك من المغالبات التي فيها عوضٌ من الطرفين. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْغَفْوُ﴾ (١٥) أي: ماذا يتصدقون ويعطون؟ قل: يعطون العفو، وهو فضلُ المال المتيسر إخراجهُ بلا تكلف، يعني: يُعطون المساكين ما فضل عن حاجتهم وحاجة أهاليهم ولو كان شيئاً يسيراً من المال والطعام والثياب والأثاث وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٤) في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (١٤) أي: كما بين الله لكم هذه الآيات في حكم الخمر والميسر كذلك يبين لكم سائر آياته لعلكم تتفكرون في الدنيا الفانية والآخرة الباقية، فتقدموا ثواب الآخرة على متاع الدنيا الزائل، وتطيعوا الله لنيل رضاه، ولا تتبعوا الهوى فتكونوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وفي هذه الآية حث على التفكير في حقيقة الدنيا والآخرة، وبيان فضل التفكير، فالتفكير بداية الهداية في أمور الدنيا والدين، والتفكير سبب لتحقيق المصالح العظيمة للفرد والجماعة. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣) روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] عزلوا أموال اليتامى، حتى جعل الطعام يفسد، واللحم يُنبتن، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، فخالطوهم في أموالهم)، وذكر غير

واحد من التابعين أن هذا سبب نزول الآية، وإصلاح مال اليتيم بحفظه والتجارة فيه لمصلحة اليتيم، والنفقة عليه منه بلا إسراف، ومخالطة مال اليتيم مثل مخالطته في الطعام بالعدل بلا زيادة تؤخذ ظلماً من مال اليتيم، ومعنى: {لَأَعْنَتَكُمْ} أي: لشدد عليكم وكلفكم في مال اليتامى ما لا تطيقون، وعسر عليكم بتحريم خلط أموالكم بمال اليتيم مطلقاً ولو كنتم تريدون بذلك إصلاح أموالهم وأحوالهم. ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُوْمِنَ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذِينِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ لا تنكحوا أي: لا تزوجوا المشركات الوثنيات، ولا تنكحوا: أي لا تزوجوا المشركين النساء المؤمنات، فلا يجوز زواج المؤمن والمؤمنة بمشرك أو مشركة، وزواج المؤمن بأمية مملوكة مؤمنة خيرٌ له من زواجه بمشركة ولو أعجبه جمالها أو كثرة مالها أو حسن أخلاقها، وتزويج المؤمنة بعبد مملوك مؤمن خيرٌ لها من تزويجها بمشرك ولو أعجبكم - أيها الأولياء - جمالها وكثرة ماله وحسن أخلاقه، فالكفار رجالاً ونساءً يدعون من يخالطهم إلى النار بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وهذه الآية تدل على شر النظر إلى الكافرين وسماع أقوالهم ومخالطتهم ولو من خلال مقاطع الفيديو والراديو، فمتابعتهم تؤثر أثراً سيئاً في القلوب والأعمال والأخلاق، وتدعو إلى الرغبة في الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والغفلة عن ذكر الله وعبادته. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ﴾ روى مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يخالطوهن في البيوت، فسأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله هذه الآية، والمحيض والحيض: هو دمٌ يخرج من رحم المرأة في زمن مخصوص من غير سبب ولادة، ودم الحيض نجسٌ، فيجب على الرجال اعتزال جماع النساء حال حيضهن، لا مجالستن ومخالطتهن، ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي: ولا تجامعوهن حال الحيض حتى يطهرن أي: ينقطع عنهن الدم، وفي قراءة: {يَطْهُرْنَ} أي: يغتسلن بعد انقطاع دم الحيض، ومثل الحيض النفاس، وهو الدم الخارج من رحم المرأة عند الولادة، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: إذا انقطع دم الحيض والنفاس واغتسلت المرأة جاز لزوجها أن يجامعها من حيث أمر الله الأزواج، وذلك في القبل لا في الدبر، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ الله يحب المكثرين من التوبة، والمتطهرين من الأنجاس، الحريصين على الوضوء والغسل وإزالة النجاسات من أبدانهم وثيابهم وأماكنهم، والمتنزهين عن مواضع النجاسات، وفي هذه الآية دليل على تحريم جماع المرأة في دبرها، فإنه موضع نجسٌ يجب اجتنابه. ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: (كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل زوجته من ورائها في قُبُلها جاء الولد أحول، فنزلت هذه الآية)، أي: نساؤكم موضع نبات أولادكم كالأرض

التي يبذر فيها الإنسان الحب فتنبت له الزرع، وكذلك المرأة يجامعها الرجل فيُنزل المني في رحمها، فتحمل بالجنين بإذن الله، ﴿فَأَتُوا حُرَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: جامعوا نساءكم كيف شئتم من أي جهة، ومتى شئتم في أي وقت، بشرط أن يكون الجماع في موضع الحرث وهو القُبل لا الدُّبر، وفي غير زمن الحيض والنفاس، ﴿وَقَدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَّوهُ﴾ أي: قدّموا لأنفسكم الأعمال الصالحة التي تنفعكم في الآخرة، واتقوا الله بفعل أوامره واجتنب نواهيه، واعلموا أنكم ملاقو الله عند الموت، وملاقوه يوم القيامة عند الحساب، ومن علم أنه سيلقى الله آمناً وأحسن العمل، ﴿وَشَرِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بشرهم بالخير العظيم في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةَ لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: لا تجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من فعل الخير كالصدقة وصلة الرحم أو مانعاً لكم من تحقيق تقوى الله أو مانعاً لكم من الإصلاح بين الناس، فمن حلف على ترك الخير، فليُكفّر عن يمينه، وليفعل الخير. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحُوفِ أَيِّنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: لا يحاسبكم الله بما لم تقصدوه يميناً، ولم توجبوه على أنفسكم، نحو قول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وهو لا يقصد اليمين، فهي يمين غير منعقدة، وليس فيها كفارة، ولكن يحاسبكم الله بالحلف الذي قصدت به قلوبكم اليمين بالله، فمن حلف بالله قاصداً تأكيد ما حلف عليه ثم حنث فعليه كفارة اليمين المعروفة، فيُطعم عشرة مساكين، فإن لم يستطع صام ثلاثة أيام، والحليم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي لا يعجل بالعقوبة على ذنوب عباده، بل يمهل الكافرين والظالمين والفاسقين عسى أن يتوبوا. ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبْعَ اشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: الذين يخلفون على ترك جماع نساءهم لهم مهلة أربعة أشهر، فإن رجع الزوج عن يمينه، وجامع زوجته وقد حلف أن لا يجامعها؛ فليُكفّر عن يمينه، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا كره زوجته حلف أن لا يجامعها أبداً، ولا يطلقها كراهة أن يتزوجها غيره، فتكون معلقة عليه حتى يموت أحدهما، فأبطل الله ذلك، وأمهل المولي أربعة أشهر، فإذا أن يجامع زوجته ويحنث في يمينه وإما أن يطلقها، ولا يجوز له أن يجعلها معلقة لا متزوجة ولا مطلقة، فالضرر يُزال ولا يُقر، ﴿وَإِن عَزِمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: وإن عزم المولي على طلاق زوجته واستمراره في اليمين فليتلطف بطلاقها، ولا يقع الطلاق بحديث النفس، وإنما يقع الطلاق باللفظ، ويقع أيضاً بالكتابة مع نية الطلاق، والله سميع لأقوال عباده، عليم بأعمالهم ونياتهم. ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَرْبِصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ يترصدن: ينتظرن، وقُرُوء جمع قَرء، والقَرء يُطلق على الحيض وعلى الطهر، فهو من الأضداد، فعِدَّة المطلقات ثلاث حِيض، وقيل: ثلاثة أطهار، قولان مشهوران للفقهاء، ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: لا تكتُم المطلقة ما خلق الله في رحمها من حملٍ أو حيض، ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ

بِرَهْنٍ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴿١٠٤﴾ بَعْلُ الْمَرْأَةِ: زوجها، فالزوج أحق بإرجاع زوجته الرجعية إن طلقها مرة أو مرتين ما دامت في عدتها، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: للزوجات حقوق واجبة على أزواجهن، مثل الذي عليهن من الحقوق لأزواجهن، وللرجل زيادة في الحقوق على زوجته؛ لفضله وإنفاقه. ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: الطلاق الذي يملك الزوج بعده إرجاع زوجته مَرَّتَانٍ مَرَّةً بعد مَرَّةً، ويسمى الطلاق الرجعي، فإن طلقها ولم تخرج من العدة فيما أن يُرجعها ويعاشرها بالمعروف بلا ظلم ولا سوء خُلُق، وإما أن يتركها فلا يراجعها حتى تنقضي عدتها، وعليه أن يؤدي حقوقها ولا يظلمها، فالواجب على الزوج إما أن يعاشر زوجته بالمعروف شرعاً وعرفاً وإما أن يطلقها بإحسان، ولا يجوز له أن يدخل الضرر على زوجته بالظلم والتقصير في النفقة وسوء الخُلُق، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لا يحل للزوج أن يأخذ شيئاً من مهر زوجته إذا أراد مفارقتها إلا في الخُلُع، وهو مفارقة الرجل زوجته على عِوَضٍ تدفعه الزوجة له، فيجوز للزوج أن يأخذ ما تعطيه زوجته من مالٍ ليفارقها، إن عَلِمَا أو ظَنَّا أَنَّهُمَا لَا يَسْتَطِيعَانِ الْقِيَامَ بِالْحَقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ، لسوء خلق الزوج أو لكرهية الزوجة له أو لغير ذلك من الأسباب، فإن خاف الزوجان أو الأولياء والمصلحون بين الزوجين أَنَّهُمَا لَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فِي الزَّوْجِ فَلَا إِثْمَ عَلَى الزَّوْجَيْنِ فِي أَنْ تَدْفَعَ الزَّوْجَةُ لزوجها مَالًا لِيَفَارِقَهَا، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ هذه الأحكام بينها الله لكم في كتابه فلا تتجاوزوها بالمخالفة، ومن يتعد الأحكام الشرعية المتعلقة بالزواج وغير ذلك من أحكام الشريعة فهو من الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، المستحقين لعذاب الله في الدنيا والآخرة. ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: فإن طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة فلا تحل له بعد الطلاق البائن حتى تتزوج برجل آخر زواجاً صحيحاً عن رغبة في دوام الزواج لا بقصد تحليلها لزوجها الأول، فإن طلقها الزوج الثاني أو مات عنها بعد حصول الجماع بينهما فلا إثم على المرأة ولا زوجها الأول أن يتزوجا إن غلب على ظنهما أن يقوموا بالحقوق الزوجية كما شرع الله. ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴿١١٠﴾﴾ أي: وإذا طلقتم زوجاتكم طلاقاً رجعيّاً فقاربن انتهاء العدة فيما أن تُراجعوهن بالمعروف بلا ظلم ولا سوء خُلُق، وإما أن تتركوا إرجاعهن حتى تنقضي عدتهن بلا ظلم لهن ولا إساءة، ولا يجوز لكم أن تراجعوهن بقصد الإضرار بهن، كأن يتركها الزوج في عصمته من غير أن يعطيها حقوقها، ويمتنع من طلاقها لثلاثاً تتزوج رجلاً غيره أو يراجعها بعد الطلقة الأولى ليطلقها طليقة ثانية لتطويل العدة عليها، أو ليضطرها إلى الخلع ودفع

مالٍ له لتفتدي نفسها منه، ومن يضر زوجته فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَنَخَّدُوا أَيَّتَ اللَّهِ هُزُوا﴾ أي: ولا تستهزئوا بأحكام الله التي شرعها لمصالح عباده ودفع الضرر عنهم، فتجعلوها لعباً وسخرية بترك العمل بها، وتغييرها عن مقاصدها، ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِرَ بِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: واذكروا نعم الله عليكم لتشكروه عليها، واذكروا أعظم نعم الله عليكم، وهي نعمة القرآن الكريم والسنة النبوية المبينة للقرآن، ففيهما الهداية في جميع أموركم الدينية والدنيوية، وفيهما الأحكام العادلة، والأخبار الصادقة، والمواعظ الكافية، والنصائح النافعة. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَصْلُوهُنَّ أَنْ يَكْحَنَ أزواجهنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ روى البخاري من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال: (زوجت أختاً لي من رجل فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية، فزوجته إياها)، ومعنى الآية: وإذا طلق الرجال زوجاتهم طلاقاً رجعيّاً، فانقضت عدة المطلقة من غير أن يراجعها زوجها، ثم أراد أن يتزوجها مرة أخرى بعقدٍ نكاحٍ جديد فلا يجوز لكم - أيها الأولياء - أن تمنعوا النساء من التزويج بأزواجهن الذين طلقوهن ولم يراجعوهن في العدة، إذا تراضا الرجل وزوجته التي طلقها على أن يتزوجها مرة أخرى بالمعروف شرعاً بعقدٍ جديد ومهرٍ جديد، ﴿ذَلِكَ يُعْظَى بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ كَرِهَ اللَّهُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: هذا النهي لأولياء النساء من منعهن من التزويج بمن طلقوهن إنما يعمل به المؤمنون بالله واليوم الآخر، وتزويج النساء المطلقات بأزواجهن مرة أخرى إذا رغبوا في الزواج خيراً لكم، وأطيب لنفوسكم، وأطهر لقلوبكم من الذنوب والعداوات، والوقوع في المنكرات، والله يعلم مصالح العباد في دينهم ودنياهم، ويعلم ما لا يعلم الناس، فشرع لهم ما يصلحهم، ويدفع الشرور عنهم. ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ {حَوْلَيْنِ} أي: سنتين، فهذا هو الأكمل والأفضل في إرضاع الأولاد من الذكور والإناث، إن أراد الأب أو الأم كمال الرضاعة للولد، سواء في حال بقاء الزواج أو مع وقوع الطلاق، ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِضْعُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إن طلق الرجل زوجته وبينهما ولد رضيع فعلى والد الرضيع أن يدفع للأم المرضعة أجرة الرضاع من الطعام والكسوة بالمعروف شرعاً وعرفاً بلا نقص ولا إسراف، بحسب غناه وفقره، لا يوجب الله على الإنسان إلا قدر ما يستطيعه، ومن ذلك النفقة على أولاده، ﴿لَا تُضَارُّ وَرِثَةً وَلَا مَوْلُوداً لَهُ يُولَدُ لَهُ﴾ أي: يحرم على الأم الإضرار بالأب فتكلفه نفقة لا يستطيعها أو تمنعه من رؤية ولده وزيارته، ويحرم على الأب الإضرار بالأم فيمنعها من إرضاع ولدها أو يقصر في نفقتها ونفقة ولدها، وفي وصف الأب بأنه

مولود له بيان أن الأولاد يُنسبون إلى آبائهم، وأهم أحق بالأولاد من الأمهات، وأن عليهم النفقة على أولادهم وعلى الأمهات المطلقات إن أرضعن أولادهم، فالأمهات ولدن الأولاد للآباء، ولا ينافي هذا حق الأم في الحضانة لمصلحة الولد، ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلَ ذَلِكَ﴾ أي: إذا مات والد الطفل فيجب على وارثه مثل ما كان واجباً على الأب من النفقة والكسوة للأم المرضعة وولدها بالمعروف، وترك الإضرار بها، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن أراد الأب والأم فطام الرضيع قبل انتهاء الحولين، وتراضيا على ذلك، وشاورا من يهمله مصلحة الطفل؛ فلا إثم عليهما في فطامه، ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْتَمُوا أَنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: وإن أردتم أن تطلبوا لأولادكم الرضّع مرضعاتٍ غير أمهاتهم المطلقات فلا إثم عليكم، إذا دفع الأب للأم المطلقة حقها من النفقة أثناء حملها، وأعطى للمرضعة أجره الرضاعة بلا نقص ولا ماطلة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِى الضَّرْعِ لُهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦]، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ يذرون: يتركون، يترصدن: ينتظرن في بيوت الزوج ولا يعجلن إلى الزواج، أي: إذا مات الزوج وترك زوجة أو زوجات يجب عليها العدة في بيت زوجها أربعة أشهر وعشر ليال، ولا يجوز لها التزين ولا التطيب ولا الزواج أثناء العدة، ولا تخرج من بيت زوجها إلا لحاجة في النهار، ولا تخرج ليلاً إلا لضرورة، والحامل تنتهي عدتها بوضع حملها، ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ وَالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بلغن أجلهن: انقضت عدتهن، والأجل غاية تقال في الموت وغيره، أي: فإذا انقضت مدة عدة المرأة المتوفى زوجها فلا حرج على أوليائها فيما فعلت في نفسها من الزينة والتطيب والزواج بالمعروف شرعاً، فلا تظهر الزينة للرجال الأجانب، ولا تتطيب عند الخروج من بينها. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ التعريض الإيماء والتلويح من غير تصريح، وخطبة النساء هي: طلب الزواج من المرأة، أي: لا إثم على الرجال أن يذكروا للنساء المتوفى أزواجهن أو المطلقات طلاقاً بائناً كلاماً يشير إلى الرغبة في خطبتهن بعد انتهاء عدتهن، ولا إثم فيما أضمرتم في أنفسكم من نية الزواج بالمرأة بعد انتهاء عدتها، فالله يعلم أن بعض الناس قد يذكر للمرأة المتوفى زوجها أو المطلقة طلاقاً بائناً رغبتة في الزواج بها، وقد حرم الله التصريح لها بالرغبة في نكاحها أثناء عدتها، وأجاز التعريض لها من غير تصريح، فيكلمها الرجل بكلام تفهم منه أنه قد يرغب في الزواج بها، ونهى الله الرجل أن يُصرح للمرأة في الخفاء أنه سيتزوجها بعد انقضاء عدتها إلا بأن يُعريض لها كما أباح الله من غير توضيح وتبيين، ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ

أَلَيْسَ أَجَلُهُ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ عقدة كل أمر إيجابه، وأصله الشد، أي: لا تعقدوا النكاح على المعتدات حتى تنتهي عدتهن، ثم أمرنا الله أن نعلم أنه يعلم ما في أنفسنا، وأن نعلم أنه غفور حلیم لا يعاجل العصاة بالعقوبات، فلنحذر من النيات الفاسدة، والمخالفات الخفية، ولنتب إليه، ونطلب مغفرته، ولا نغتر بإمهاله. ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ تَمَسُّوهُنَّ: تجمعهن، فريضة: مهرًا، و متَّعوهنَّ: أعطوهن مالا، والموسع الكثير الغني، والمقتِر: قليل المال الفقير، قدره: بحسب قدرته، أي: لا إثم عليكم إن طلقتم الزوجات بعد عقد النكاح وقبل الجماع، وقبل تحديد المهر، وعلى من طلق زوجته بعد العقد وقبل الجماع أن يعطيها شيئاً من ماله جبراً لخاطرها بحسب قدرته وحاله من الغنى والفقير. ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ يَدَيْكُمْ فَادْفَعُوا إِلَيْهِنَّ أَمْثَلَ الَّذِي أَغْرَبْنَ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ الْبَالِغِينَ﴾ أي: إن طلقتم الزوجات قبل الجماع وقد حددتم لهن قدر المهر فلهن نصف المهر المحدد إلا أن تتسامح المطلقات فيتنازلن عن حقهن فلا يأخذن نصف المهر أو يتسامح الزوج عن حقه في ارتجاع نصف المهر فيتركه لزوجته المطلقة فيكون لها المهر كاملاً، والذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، فهو الذي يمسك الزوجة أو يطلقها إن شاء، ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ رَغِبَ اللهُ كَلًّا مِنَ الزَّوْجَيْنِ إِنْ حَصَلَ الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ وَبَعْدَ تَحْدِيدِ الْمَهْرِ أَنْ يَعْفو كُلُّ مِنْهُمَا عَنْ حَقِّهِ فِي نِصْفِ الْمَهْرِ، فَمَنْ عَفَا عَنْ حَقِّهِ فَهُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى مِنَ الْآخَرِ، وَالْآيَةُ عَامَةٌ فِي الْأَزْوَاجِ وَغَيْرِهِمْ، فَمَنْ عَفَا عَنْ حَقِّهِ فَهُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لا ينسى كلٌّ من الزوجين الإحسان إلى الآخر، والتفضل عليه بالزيادة على حقوقه الواجبة، ومسامحته إن قصر في بعض حقوقه. ﴿حَنِيفُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي: واضبوا وداوموا على الصلوات الخمس في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها، واحذروا من التهاون بشيء منها، أو الانشغال عنها بغيرها، والصلاة الوسطى هي صلاة العصر، جاء بيانها في السنة النبوية، وهي داخلة في الصلوات الخمس، وإنما أُفردت بالذكر لبيان فضلها، والتأكيد على المحافظة عليها، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: قوموا في الصلوات لله بإخلاص، في حال كونكم مطيعين خاشعين. ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ رجالاً جمع راجل، وركباناً جمع راكب، أي: إن خفتهم فلم تستطيعوا إقامة الصلاة كاملة بخشوع بسبب قتال الكفار وغير ذلك من الأسباب فصلوا على أي حال كنتم، سواء كنتم ماشين على أقدامكم أو راكبين على الدواب أو السيارات أو الطائرات أو غير ذلك، ولا حرج عليكم في ترك استقبال القبلة والتقصير في بعض شروط الصلاة وأركانها وواجباتها بسبب عذر الخوف، فإذا زال عنكم الخوف فأقيموا الصلاة كاملة

بتمامها كما أمركم الله، وأكثروا من ذكر الله شكرًا على ما علمكم الله ما لم تكونوا تعلمونه قبل إنزال القرآن الكريم وبعثة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وبآيات الموارث، ومعنى هذه الآية المنسوخة: إذا مات الزوج وترك زوجة أو زوجات فيجب عليهن العدة في بيت الزوج سنة كاملة، فلا يُخرجهن ورثة الميت من بيوت أزواجهن، ويتمتعن فيها بالسكنى والنفقة من أموالهم، فإن خرجت المرأة باختيارها قبل انتهاء الحول فلا حرج على أوليائها فيما فعلت في نفسها من الأمور المباحة شرعًا كالزينة والتطيب والزواج، وقيل: إن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي وصية مستحبة للزوجة، فإن شاءت أقامت في بيت زوجها سنة، وإن شاءت خرجت بعد انتهاء عدة الوفاة الواجبة أربعة أشهر وعشراً، وعلى ورثة الزوج المتوفى أن يتركوا زوجته في بيته سنة كاملة إن رغبت في ذلك، ولا يخرجونها منه، وتتمتع في بيت زوجها بالسكن فيه والنفقة من نصيبها من الميراث، والقول الأول أشهر عند العلماء، والقول الثاني محتمل، والله أعلم. ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٣٥﴾﴾ أي: لجميع المطلقات متاع واجب على أزواجهن بالمعروف شرعًا وعرفًا من مال وكسوة ونحو ذلك جبرًا لخواطرهن بعد طلاقهن، وهذا الأمر حقٌّ على المتقين الحريصين على ما يرضي الله. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٣٦﴾﴾ أي: مثل ما بين الله في الآيات السابقة أحكام الحيض والجماع واليمين والإيلاء والطلاق والخلع والرضاعة والعدة وخطبة النساء وعقد النكاح ومتعة المطلقات يبين لكم في القرآن جميع الأحكام التي تحتاجون إلى بيانها لعلكم تفهمونها وتعملون بها. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٣٧﴾﴾ أي: ألم تعلم - أيها المخاطب - خبر آلاف الناس الذين خرجوا من مساكنهم خوفًا من الموت بسبب طاعون أو من الأعداء فأمرهم الله أمرًا كونيًا أن يموتوا فمات جميعهم ثم أحياهم الله في الدنيا؛ ليعلم الناس أن الفرار من الموت لا ينفع إذا جاء قدر الله، والله ذو إحسان على الناس، ونعمه عليهم لا تحصى، وأكثرهم لا يشكرون الله على نعمه. ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٨﴾﴾ لا بد أن يكون القتال في سبيل الله بإخلاص لإعلاء دين الإسلام، والله سميع لأقوال العباد، عليهم بنياتهم وأعمالهم. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ يُرَغِّبُ اللَّهُ عِبَادَهُ فِي الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَةِ بِلَا مَنٍّ وَلَا أذى، والمتصدق كأنه يُقرض الله سبحانه، والله يضاعف الأجر للمتصدق أضعافًا كثيرة في الآخرة، ويخلف عليه في الدنيا أكثر مما

تصدق، والله يضيّق الرزق ويوسع الرزق على من يشاء من عباده المسلمين والكافرين، الصالحين والفسادين، وإلى الله وحده رجوع عباده فيجازيهم بأعمالهم. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ الملاء: الأشراف والمقدمون في القوم، هل عسيتم: لعلكم، أي: ألم تعلم خبر الأشراف من بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام حين طلبوا من نبي لهم أن يختار لهم ملكًا منهم يوحد صفوفهم، ويقاتلوا معه أعداءهم الكافرين الذين أخرجوهم من بلادهم، وفرقوا بينهم وبين أبنائهم، فلما فرض الله عليهم الجهاد جُبُنُوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلاً منهم، وهذه الآية تبين أن من أسباب النصر: القتال تحت راية واحدة، بقيادة واحدة، وأن الذي يتخلف عن الجهاد في سبيل الله بلا عذر فقد تشبه باليهود الظالمين. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ الْعَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ لم يبين الله لنا في القرآن اسم هذا النبي، وفي التوراة أن اسمه صَمْوئِيلُ، وسماه كثير من المفسرين والمؤرخين: شَمْوِيلُ، والله أعلم، فقد حُرِفَت التوراة، فلا نصدق ما يذكره أهل الكتاب ولا نكذبه، ولا حرج على من ذكره من المفسرين والمؤرخين؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ)) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ))، وفي هذه الآية بيان أن الملك بيد الله يؤتیه من يشاء، والواجب السمع والطاعة لمن ولاه الله على الأمة، والتعاون معه على الخير، ولا تجوز منازعته إلا إن أظهر الكفر البواح، ومن عارض من أعطاه الله الملك، وادّعى أنه أحق بالملك منه حسدًا له، وحرصًا على الدنيا، وأخفى حسناته كسعة العلم وحسن التدبير وقوة الجسد فقد تشبه باليهود، وكثير من الفتن والحروب سببها الحرص على الملك، والله يؤتي ملكه من يشاء من الصالحين والفسادين، وينزع الملك ممن يشاء، وكل ذلك ابتلاء، وقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام أمته بالسمع والطاعة لمن تأمر عليهم وإن كان عبدًا حبشيًّا مُقْتَطَعِ الْأَطْرَافِ، وقال في حُطْبَةِ حِجَّةِ الْوُدَاعِ: ((إِنَّ أَمْرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُّجَدِّعٌ أَسْوَدٌ يَفُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا)) رواه مسلم من حديث أم الحصين رضي الله عنها، وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا

وَمَكَرْهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُتَارِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. ﴿١٤٨﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴿١٤٩﴾ أي: علامة مُلكِ طالوت أن يردَّ الله عليكم الصندوق الذي أخذه منكم الكفار، وفي الصندوق طمأنينة لكم من الله، وبعض الآثار التي تركها موسى وهارون وذريتهما من بعدهما، قيل: هي عصا موسى وما تبقى من ألواح التوراة التي تكسرت، والله أعلم، ﴿تَحْمِيلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٠﴾ أي: تحمل الملائكة الصندوق، وهذه العلامة العجيبة لتتقينوا صحة ملك طالوت عليكم إن كنتم مؤمنين. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكُم مُّبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَرِهَ مَن شَرِبَ فَذَكَرَ قَلِيلًا مِّنْهُمْ لَمْ يَشْرِبْ مِنْهُ فَأَخَذَهُ اللَّهُ مَتًّا فَذَكَرَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَذَكَرَ اللَّهُ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴿١٥١﴾ أي: فلما خرج طالوت بجنوده وابتعدوا من المكان الذي كانوا فيه قال لهم: إن الله مختبركم بنهر، فمن شرب من النهر فليس من أهل طاعتي فلا يتبعني، ومن لم يشرب منه إلا غرفة بيده فهو من أهل طاعتي فليتبعني، فشرب منه جنوده كلهم إلا قليلاً منهم، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فلما تعدى طالوت والمؤمنون النهر، وهو نهر الأردن فيما قيل، والله أعلم، قال المؤمنون لما رأوا قلتهم وضعفهم، ورأوا كثرة الكافرين وقوتهم: لا قدرة لنا اليوم على قتال ملك الكفار جالوت وجنوده الكثيرين الأقوياء، قال الموقنون بقاء الله: كم من جماعة قليلة غلبت جماعة كثيرة بقدرة الله ومشيئته، والله مع الصابرين بالتأييد والنصر، فمن أسباب النصر: الصبر واليقين. ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَكَبِّرْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾ أي: ولما ظهر المؤمنون لجالوت وجنوده الكافرين في أرض المعركة المتسعة دعا المؤمنون الله بقولهم: ربنا اصعب على قلوبنا الصبر فلا نجبن، وثبت أقدامنا في القتال فلا نفر، فمن أسباب النصر: دعاء الله والثبات في مواطن القتال. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ أي: فهزم المؤمنون الكافرين بقدرة الله وعونه، وقتل داود - قبل أن يكون نبياً - ملك الكفار جالوت، وآتى الله داود ملك بني إسرائيل بعد طالوت، وجعله نبياً، وأنزل عليه الزبور، وعلمه مما يشاء الله أن يعلمه كصنع الدروع الخفيفة من حلق الحديد، ولولا أن الله يدفع بالمجاهدين في سبيله كيد الكفار والمنافقين والفاستقين لفسدت الأرض بالكفر والظلم والمعاصي، وأهلك الله أهلها بالعقوبات العامة إذا غلب فيها الكفر والظلم والمعاصي، ولم يبق فيها شيء من الإيمان والعمل

الرُّوحَ وَالْمَلَائِكَةَ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا { [النبأ: ٣٨]، وقال سبحانه: { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى { [النجم: ٢٦]، وقال عز وجل: { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى { [الأنبياء: ٢٨]، والله لا يرضى إلا عن المسلمين الموحدين، أما الكافرون فلا يرضى عنهم، ولا شفاعاة لهم، كما قال الله عنهم: { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ { [المدثر: ٤٨]، وقال سبحانه حاكياً عنهم أنهم يقولون: { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ { [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، فالشفاعة المثبتة هي لأهل التوحيد من المسلمين، والشفاعة المنفية هي في حق الكافرين، وتواترت الأحاديث النبوية في إثبات الشفاعاة للموحدين، والشفاعة أنواع منها: الشفاعاة لبعض الصالحين أن يدخلوا الجنة بلا حساب، ومنها: الشفاعاة في رفع درجات بعض أهل الجنة، ومنها: الشفاعاة لأناسٍ من الموحدين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها، ومنها: الشفاعاة في خروج الموحدين من النار، ويتمنى الكفار حين يُخْرِجُ اللهُ الموحدين من النار أنهم كانوا مسلمين ليخرجوا منها كعصاة المسلمين، قال سبحانه: { زُبَّكَ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ { [الحجر: ٢]، فالذين يُخَلَّدُونَ في نار جهنم أبداً هم الكفار، أما أهل الكبائر من المسلمين فيُعَذِّبُهُمُ اللهُ في قبورهم بما شاء من أنواع العذاب، ويعذبهم يوم القيامة عذاباً عظيماً كما يشاء، وإن أدخلهم النار لا يُخَلَّدُونَ فيها، بل يُخْرِجُهُمُ اللهُ منها برحمته متى شاء، ولا يبقى في النار مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان، قال الله تعالى: { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ { [المائدة: ٧٢]، وقال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا { [النساء: ١١٦]، وقال عز وجل: { فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ { [هود: ١٠٦، ١٠٧]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يبين الله سبحانه سعة علمه، فهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل لكل مخلوق بالتفصيل، فلا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يبين الله سبحانه قلة علم المخلوقين بالنسبة إلى علم الله، كما قال تعالى: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا { [الإسراء: ٨٥]، فالعباد لا يعلمون شيئاً من علم الله الواسع إلا بما شاء أن يُطلعهم عليه، سواء من العلم الديني أو العلم الدنيوي، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسي مخلوق عظيم من مخلوقات الله يسع السماوات السبع والأرض، فالسماوات الدنيا التي زَيَّنَّهَا اللهُ بالنجوم تحيط بالأرض من جميع جوانبها، والسماوات الثانية تحيط بالسماوات الأولى، وهكذا تحيط كل سماء بالسماء التي دونها، والكرسي فوق السماء السابعة، وفوقه العرش العظيم، وهو مستقرُّ على ماء عظيم

بقدره الله كما أخبرنا الله بذلك في قوله: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } [هود: ٧] أي: كان ولم يزل، وروى البيهقي في كتاب الأسماء والصفات بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمس مائة عام، وما بين كل سماء مسيرة خمس مائة عام، وما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمس مائة عام، وما بين الكرسي والماء مسيرة خمس مائة عام، والعرش على الماء، والله عز وجل على العرش يعلم ما أنتم عليه)، ولا نعلم كيفية الكرسي ولا العرش، والعرش أعظم من الكرسي، بل هو أعظم المخلوقات، كما قال الله تعالى: { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } [التوبة: ١٢٩]، ﴿وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: ولا يُثقل الله ولا يُتعبه ولا يشق عليه حفظُ السماوات السبع والأرض وما فيهما من الخلق، فالله يحيي ويميت، ويُقدر الأرزاق، ويوجب الدعوات، ويُقلب الليل والنهار، ويُدير الكون وما فيه بما يشاء، وهو أحكم الحاكمين سبحانه. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ هذان اسمان من أسماء الله الحسنى، فالله هو العلي بذاته وقدره وقهره، فهو العلي علو ذات، استوى على عرشه كما يليق بجلاله، وهو العلي علو قدر في عظمته وصفاته، وهو العلي علو قهر على جميع خلقه، قهر كل شيء بقدرته وتدييره، وهو العظيم الذات والصفات، له جميع معاني العظمة، فهو الكامل في جميع صفاته، وهو أعظم وأكبر من كل شيء، فيجب على المسلم تعظيم الله سبحانه، وتعظيم أمره ونهيه، وتعظيم شرعه، والاستقامة على دينه، والخوف من عقابه. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَّيْنِ الرَّشْدِ مِنَ النَّبِيِّ﴾ روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت المرأة تكون مقلاتاً - لا يعيش لها ولد - فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوده، فلما أُجلبت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية)، فمن شاء لحق باليهود، ومن شاء دخل في الإسلام، فلا يجوز إكراه أحدٍ على الدخول في الإسلام، ولا يصح إسلام المكروه، فمن أظهر الإسلام وأبطن الكفر فهو منافق، فلا بد للدخول في الإسلام من الرغبة فيه، والإيمان الصادق بالدين الحق، ولا حاجة إلى إكراه أحدٍ على الدخول في الإسلام، فقد تبين الهدى من الضلال، والإسلام هو الدين الحق الذي رضي الله لعباده، وهو يوافق العقل والفطرة، وكل الأديان سواه ظاهرٌ بطلانها، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَكَفَرْنَا بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ لَا تَتَّخِذُوا لِلدُّنْيَا مَوَدَّةً وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الطَّاغُوت: كل ما تجاوز حدّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، كالشيطان والأصنام ومن عُبد وهو راضٍ، وكدعاة الكفر والضلال، وكالقوانين المخالفة للشريعة، والعروة: موضع الإمساك وشد الأيدي من الحبل الذي يُتعلق به، والوثقى: المحكمة، لا انفصام لها: أي: لا انقطاع لها، فهي محكمة قوية الربط في الحبل، والمراد بالعروة الوثقى الإسلام، فمن يكفر بالطَّاغُوت ويؤمن بالله وحده إلهًا ومطاعًا وحاكمًا لا شريك له فقد تمسك

بالدين الحق، وهو الإسلام الذي من تمسك به نجا من الضلال في الدنيا، ومن العذاب في الآخرة، ووصل بالتمسك به إلى الجنة. ﴿اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ الله ولي المؤمنين، يتولاهم ويعينهم على الخير، ويزيدهم هداية وتوفيقاً، ويخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والمعاصي والشهوات والشبهات إلى نور الإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، فالمؤمن محتاج دائماً إلى هداية الله له، وفي كل ركعة من صلاته يسأل الله الهداية إلى الصراط المستقيم، والكفار يتولاهم شياطين الجن والإنس، فيضلونهم ويعينونهم على الشر، ويزيدونهم كفرًا وفسوقًا وظلمًا وضلالًا، ويخرجون من استطاعوا من الإيمان إلى الكفر، ومن طاعة الله إلى طاعة الشيطان والأهواء. ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّىَ أَلَّذِى يُحَى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحَى وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِ بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ أي: ألم تعلم بقصة الملك الكافر الذي جادل النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وجود الله وربوبيته وألوهيته، وحمله على تلك المجادلة الباطلة أن أعطاه الله الملك بقدرته ومشئته، فتكبر وطغى، ولم يعبد الله ولم يشكره، قيل: هو تمروذ ملك العراق، والله أعلم، فلما أخبره إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن الله يحيي ويميت قال الملك الكافر معاندًا: أنا أحيي وأميت، يعني أنه يعفو عمن أراد أن يقتله فيحيا، ويقتل من أراد أن يميته، فلما رأى إبراهيم مغالطته قال له: فإن الله يأتي بالشمس كل يوم من جهة المشرق فإن كنت تحيي وتميت وتتصرف في الكون فأت بالشمس من جهة المغرب، فانقطع الكافر عن الجواب، ودهش وتحير، وبطلت حجته، وظهر عجزه وكذبه، والله لا يهدي الظالمين المصيرين على ظلمهم وضلالهم. ﴿أَوَكَلِّى مَرَعًا قَرْيَةً وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحَى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿١٥٢﴾﴾ يعني: أولم تر إلى الرجل الذي مرَّ على قرية، يقال: هو عُزَيْرٌ عليه السلام، والقرية هي بيت المقدس بعد أن حاربها بُحْتَنَصَّرُ ملك بابل، والله أعلم، والعروش السقوف، وخواوية: خالية، يعني: قد سقط بعضها على بعض، سقطت سقوفها ثم سقطت عليها الحيطان، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلِكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴿١٥٣﴾﴾ وأنظر إلى العظام كيف نُشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥٤﴾﴾ لم يتسنه: لم يتغير بمر السنين عليه، نُشِئُهَا: أي: نرفعها إلى مواضعها، ونعلي بعض العظام على بعض، وفي قراءة: {نُشِئُهَا} أي: نحییها، كان هذا الرجل راكبًا على حمار، ومعه طعام وعصير، قال الرجل: كيف يحيي الله هذه القرية بعد دمارها وهلاك أهلها؟! فأماته الله مدة مائة عام، ثم بعثه بعد موته فسأله الله بواسطة ملكٍ من الملائكة: كم لبثت ميتًا في هذا المكان؟! قال: لبثت ميتًا يومًا

أو بعض يوم، قال: بل لبثت ميتاً مائة عام، ولم يتغير طعامه وشرابه بقدره الله هذه المدة الطويلة، ورأى عظام حمارة بجانبه، فأراه الله كيف يحيي الحمار بعد موته، فارتفعت عظام الحمار، واتصل بعضها ببعض بقدره الله، ثم كساها الله لحمًا، فإذا الحمار حي كما كان، فأيقن الرجل بقدره الله على إحياء الموتى، وعلم كمال قدرة الله سبحانه. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٠﴾﴾ أي: اذكر حين دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، فقال الله: أُولِمُ تُوْمِنُ؟ قال: بلى، أنا مؤمن بك وأعلم قدرتك على إحياء الموتى، ولكن أريد أن أشاهد ذلك بعيني، ويزداد يقيني بالمشاهدة، ويزداد قلبي طمأنينة، فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور كالدجاج أو الحمام أو غير ذلك، {فصُرْهُنَّ إِلَيْكَ} أي: ضمهن واذبحهن وقطعهن، ثم اجعل على كل جبل من الجبال التي حولك جزءًا من هذه الطيور التي قطعتها وخلطت بعضها ببعض، ثم ادعهن، فدعاهن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأحياهن الله بقدرته، ورجع كل طير كما كان، وجاءت تلك الطيور الأربعة إلى إبراهيم عليه السلام يمشين بأقدامهن مسرعات. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾﴾ السُّنْبُلَةُ من الزرع مكان تكوّن الحب، جمعها سنابل، من فضل الله الكريم على عباده المؤمنين المخلصين مضاعفة أجر الصدقات وغيرها من الأعمال الصالحة، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ)). ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ المنُّ تعديد المعطي إحسانه على وجه الفخر، وهو من كبائر الذنوب؛ لأنه يكسر خاطر المعطي، والأذى كل ما يُكره من الأقوال والأفعال. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: رد السائل بقول حسن، والعمو عن إساءته خير من صدقة يكون بعدها أذى للسائل بقول أو فعل، ومن أسماء الله الحسنى الغنى، فهو غني بذاته، له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، غني عن جميع خلقه، وعن عبادتهم وصدقاتهم، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ومن كمال غناه أنه يرزق خلقه أجمعين في الدنيا، وأعد للصالحين في الجنة ما لا ينفد، من النعيم الذي لا يخطر ببال أحد. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْتَاطُونَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ من مبطلات أجر الصدقة: المن والأذى والرياء،

والكافر إذا تصدق ليس له أجرٌ في الآخرة، فمثلُ صدقته كصفوان، وهو حجر أملس، عليه ترابٌ، فأصاب الحجر مطرٌ شديد فترك المطرُ الحجرَ أملسًا ليس عليه ترابٌ تنبت فيه الزروع والأشجار، وكذلك الكفار لا ينتفعون في الآخرة بصدقاتهم وأعمال الخير التي عملوها في الدنيا، فالله لا يقبلها منهم لكفرهم، والله لا يهدي القوم الكافرين ما داموا مصرين على كفرهم. ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَوَيْبَاتٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَمْعٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضَعْفَينَ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾﴾ {تنبينا من أنفسهم} أي: يستيقنون أن الله يثيب المتصدقين، فهم يحسبون الأجر في صدقاتهم، ويمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق، ويثبتون أنفسهم على الإيمان باحتمال المشقة في بذل المال، أي: مثلُ صدقات المخلصين الصادقين كبستان كثير الأشجار على مكان مرتفع من الأرض أصابه مطر غزير فأعطت ثمرته ضعفين بسبب خصب التربة وارتفاع البستان وكثرة المطر، فإن لم يصب هذه الجنة مطر كثير فيكفيها مطر خفيف لتؤتي ثمارها، فكذلك المؤمن المنفق يضاعف الله أجر صدقاته سواء قلت أو كثرت. ﴿يُودُّ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٦٦﴾﴾ أي: أجب أحدكم ويتمنى أن تكون له الجنة في الدنيا من النخيل وأنواع الأعناب، تجري من تحت أشجارها الأنهار فيسقيها بلا مشقة، له في هذه الجنة من جميع أصناف الفواكه، وأصابه كبر السن، وله أولاد ضعفاء لصغرهم أو لعجزهم، فهو في أمس الحاجة إلى هذه الجنة للنفقة على نفسه وعلى ذريته، فأصاب الجنة ريحٌ عاصفٌ ترفع التراب إلى السماء وتدور في الأرض بسرعة وفيها نارٌ فاحترقت هذه الجنة؟! فهذا مثلٌ من أكثر من الصدقات والأعمال الصالحة ثم ترك الاستقامة على طاعة الله وانتكس، فأحبط الله ثواب أعماله الصالحة، فلم ينتفع بثوابها في الآخرة، وإنما الأعمال بالخواتيم. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يدخل في هذه الآية الزكاة الواجبة كزكاة النقد وعروض التجارة وزكاة الثمار والزروع والمعادن، وصدقات التطوع المستحبة في جميع الأموال، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٣٦٧﴾﴾ نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار كانوا يتصدقون بالردية من التمر، فنهاهم الله عن ذلك، أي: ولا تتعمدوا ولا تقصدوا الصدقة بالردية من التمر وغير ذلك من أموالكم، ولو كان الحق لكم لن تقبلوا هذا الردية إلا أن تتغاضوا عن رداءته، وتتساحوا في قبوله، ومن أسماء الله الحسنى الحميد، فهو الحمود في ذاته وأسمائه وصفاته، له الحمد كله، فالثناء كله له، والشكر كله له. ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦٨﴾﴾ أي: الشيطان يخونكم - أيها المؤمنون - الفقر إن تصدقتهم، ويأمركم

بالخل وغير ذلك من المعاصي المنكرة، والله يعدكم - أيها المؤمنون - أن يغفر لكم بسبب صدقاتكم، ويزيدكم رزقاً حسناً، ويعوضكم عما تصدقتم به، كما قال الله تعالى: { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ } [هود: ١١٤]، وقال سبحانه: { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [سبأ: ٣٩]، وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الصدقة تُطْفِئُ الحَطِيبَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ)) رواه الترمذي وصححه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ)) رواه مسلم. ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكِّرُ إِلَّا الْأُولَ الْأُولَى﴾ الحكمة هي معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وعبادة الله سبحانه، وحسن الأخلاق في معاملة الناس، فهذا كله من الحكمة، وأعظم الحكمة: القرآن الكريم والعلم بتفسيره، والسنة النبوية، والفقهاء في الدين، فالله يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن يعطيه الله الحكمة في اعتقاده وأقواله وأعماله الظاهرة والباطنة فقد أعطاه خيراً كثيراً، وما يتعظ ويقبل النصيحة إلا أصحاب العقول الكاملة، وأكثر الناس في عقولهم نقص فيما يتعلق بأمر الآخرة، وإن كانوا في كثير من أمور الدنيا عقلاء. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ النذر هو إلزام المكلف نفسه طاعةً لله تعالى، وهو عبادة يجب صرفها لله تعالى وحده، ومن صرف النذر لغير الله كقبرٍ أو عبدٍ صالحٍ أو صنمٍ أو غير ذلك فقد أشرك بالله شركاً أكبر. ﴿إِنْ بُدِئُوا بِالصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: إن تظهروا صدقاتكم فتعطوها مستحقيها علانية بإخلاص لله فنعيم الشيء هي، وفي ذلك مصلحة اقتداء الناس بالمتصدق، وحصول المقصود للمحتاج، وإن أخفيتم صدقاتكم، وأعطيتموها الفقراء سرّاً فهو أكثر أجراً، وأبعد عن الرياء. ﴿يَسْأَلُكَ هَدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ كان الصحابة رضي الله عنهم لا يتصدقون على أقاربهم المشركين، فسألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك فنزلت هذه الآية، رواه ابن جرير الطبري وغيره بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأجاز الله للمسلمين أن يتصدقوا على المشركين، وأيُّ صدقة على مسلم أو كافر فنفعها يعود على المتصدق، وفيها أجر إذا كانت بإخلاص طلباً لرضا الله سبحانه، ويوم القيامة يؤدّي أجرها كاملاً لصاحبها من غير نقص. ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ بيّن الله في هذه الآية أحق الناس بالصدقات، وهم الفقراء الذين فرغوا أنفسهم للجهاد في سبيل

الله، فحُجِسوا عن طلب الأرزاق بالسفر والتجارة ونحو ذلك، يظنهم الجاهل بحالهم أغنياء بسبب تعففهم عن سؤال الناس، ونزاهتهم عما لا يليق، وقناعتهم بما تيسر لهم من رزق يسير، يعرفهم المتأمل بعلاماتهم الخفية الدالة على عفتهم وحاجتهم، كالتواضع وورثاة الثياب وضعف الأبدان، والخطاب لغير معين ليعم كلَّ مخاطب، ومن صفاتهم أنهم لا يسألون الناس أموالهم إلحاحًا، فإن اضطروا أو احتاجوا لطلب صدقة أو قرصًا لا يكررون الطلب، ومثل المجاهدين في سبيل الله المتفرغون لطلب العلم النافع، والدعوة إلى الله سبحانه، فهؤلاء أفضل من يتصدق عليهم المتصدقون، وأحق بالمواساة من غيرهم لتفرغهم لحفظ الدين وإقامته ونشره، وإقامة مصالح الإسلام والمسلمين. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٦) وعد الله المكثرين من الصدقات ليلاً ونهارًا في الخفاء والعلن بأجر عظيم عند ربه الكريم، ولا خوف عليهم مما يستقبلونه بعد موتهم، ولا هم يحزنون على ما تركوا في الدنيا، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ))، وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَطَهُ عَلَى هَلَكَيْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَفْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)). ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧٧) الربا أصله الزيادة؛ لأن المرابي يطلب من المقترض زيادة على ما أقرضه، والربا شرعًا: مقابلة عَوْضٍ بآخر مع زيادة أو جهل بالتمائل أو مع تأخير التقابض في الأصناف الربوية، والربا نوعان: ربا الفضل (الزيادة)، وربا النسيئة (التأخير)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الدَّهْبُ بِالدَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سِوَاءٍ بِسِوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ)) رواه مسلم، نص النبي صلى الله عليه وسلم على ستة أصناف ربوية، وقاس الفقهاء عليها غيرها مما يشترك معها في العلة، وهذه الأصناف الربوية من حيث العلة قسمان: قسم العلة فيه الثمنية، وهو الذهب والفضة وما يجري مجراها من الأوراق النقدية كالريال اليمني والريال السعودي والدولار الأمريكي. وقسم العلة فيه الطعم وهو البر والشعير والتمر والملح، وما يجري مجراها من المطعومات كالزبيب والذرة والأرز واللحم والسمك والتفاح، وبعض الفقهاء جعل العلة في هذا القسم الطعم مع الكيل أو الوزن.

ومعنى الآية: أكل الربا عندما يقوم من قبره يوم القيامة لا يقوم إلا كما يقوم المصروع الذي يصرعه الشيطان ويوقعه في الاضطراب بسبب المس أي: الجنون، يقال: رجل ممسوس أي: مجنون، وذلك لأنهم كذبوا على الله واستحلوا الربا بقياس فاسد فزعموا أن البيع مثل الربا في الحكم والتعامل، والله أحل البيع وحرم الربا، وفي هذه الآية دلالة على أن الشيطان قد يتخبط الإنسان فيصرعه، فمن بلغه تحريم الربا فتاب وتركه فلا يأثم على ما مضى من أكل الربا، وأمر قبول توبته موكول إلى الله العالم بالنيات، فإن علم صدق توبته غفر له، ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحلّه بعد علمه بتحريمه فهو فاسق ملعون، والربا من أكبر الكبائر، ومن الموبقات تعامل بالربا مع إقراره بتحريمه ولم يستحلّه فهو فاسق ملعون، والربا من أكبر الكبائر، ومن الموبقات المهلكات، عن جابر رضي الله عنه قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤَكِّلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ)، وقال: ((هُم سَوَاءٌ)) رواه مسلم. ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ إِلَّا بِمَحَقِ اللَّهِ الرِّبَا أَي: يُذْهِبُهُ وَيُهْلِكُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُذْهِبُ الْبُرْكَهَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَيُرِي الصَّدَقَاتِ أَي: يُكْثِرُهَا وَيُؤَمِّمُهَا وَيُزِيدُهَا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ كَثِيرَ الْكُفْرِ لِنِعْمِهِ، كَثِيرَ الْآثَامِ، مَصْرًا عَلَى الْعَصِيانِ، كَالْمُرَابِي الَّذِي لَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ الْمَالِ، وَيَصِرُ عَلَى التَّعَامُلِ بِالرِّبَا الَّذِي يَزِيدُ الْغَنِيَّ غَنًى بِلَا عَمَلٍ، وَيَزِيدُ الْفَقِيرَ فَقْرًا بِلَا رَحْمَةٍ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بعد أن ذكر الله أصحاب الأموال المرابين، وأخبر أنهم خاسرون في الآخرة، ذكر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويطعمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وأخبر أنهم الفائزون في الآخرة. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسًا وَاللَّهُ وَدَرُؤًا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هذا شرطٌ للتهييج، أي: إن كنتم مؤمنين حقًا فاتركوا ما بقي من الربا، ولا تأخذوا زيادة على رؤوس أموالكم في المعاملات الربوية. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلَئِنَّكُمْ لَفِي ذُؤُسٍ مِمَّا تُمْلِكُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ﴾ أي: فإن لم تتوبوا من التعامل بالربا فاعلموا وأيقنوا بأن الله محارب لكم ورسوله، وإن تبتم إلى الله وتركتم الربا فلحكم رؤوس أموالكم بلا زيادة، لا تظلمون الناس بأخذ الزيادة، ولا تظلمون بنقص رؤوس أموالكم. ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن وُجد ذو عسرة فالواجب إنظاره إلى وقت ميسرة، فإن كان الذي عليه الدين معسرًا فيجب إمهاله حتى يتيسر له قضاء الدين الذي عليه، ولا يجوز حبسه ولا التضييق عليه مع إعساره، وإن تصدقتهم على المدين المعسر بالتنازل عن الدين كله أو بإسقاط بعضه فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وفي الآية ترغيب عظيم في الصدقات، والتسامح في المعاملات، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ

يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) رواه مسلم. ﴿وَأَقْبُوا يَوْمًا تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٨) هذه آخر آية أنزلها الله في كتابه، أي: واحذروا يوم القيامة الذي ترجعون فيه إلى الله فيحاسبكم على أعمالكم، فاستعدوا لذلك اليوم بالتوبة من السيئات، والاستكثار من الأعمال الصالحات، ففي ذلك اليوم تستوفي كل نفس ما عملت في الدنيا من خير أو شر، ولا يظلم الله العباد شيئاً بزيادة على سيئاتهم أو بنقص من حسناتهم أو بعقوبتهم على ما لم يعملوه. ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَدْكَرْ أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةَ إِذَا مَدُّوا لَكُمْ وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَظُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَدَّرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَأَقْبُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُكُمْ وَاللَّهُ يَكْتُبُكُمْ وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ (٣٩) هذه أطول آية في كتاب الله، وهي في الديون والبيوع، حتى لا تضيع أموال الناس في معاملاتهم المالية فيندموا على تفریطهم، ففيها دلالة على أن الإسلام جاء بتنظيم أمور الدين والدنيا، وفيها رد على العلمانيين الذين يريدون فصل الدين عن الحياة، فالشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا معاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً، فتقدم أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفستدين باحتمال أدناهما، والشريعة سمحة ليس فيها حرج بوجه من الوجوه، كاملة شاملة حكيمة، تأمر بكل ما يصلح العباد في دينهم ودنياهم، وتنهى عن جميع أنواع الفساد والشور، ومعنى آية المدائنة: يا أيها الذين آمنوا إذا دأب بعضكم بعضاً إلى مدة محددة فاكتبوا ذلك الدين، وليكتب بينكم كاتب بالحق والإنصاف الموافق للشرع والواقع، ولا يمتنع كاتب أن يكتب الدين كما علمه الله الكتابة، فليكتب ما يمليه الذي عليه الحق حتى يكون ذلك إقراراً منه، وليتق الله الكاتب والمملي ولا ينقص من الدين شيئاً في قدره أو نوعه أو أجله، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً لا يحسن التصرف بالصواب أو كان ضعيفاً لصغره أو نقص في عقله أو كان لا يستطيع الإملاء لخرسه ونحو ذلك، فليقم بالإملاء عنه وليه المسؤول عنه بالحق والإنصاف، واطلبوا عند كتابة المدائنة شهادة رجلين عاقلين عدلين، فإن لم يوجد رجلان فاستشهدوا رجلاً وامرأتين ترضون دينهم وأمانتهم، حتى إذا نسيت إحدى المرأتين ذكرتها أختها بالدين وتفاصيله، ولا يمتنع الشهود إذا طلب منهم الحضور للشهادة على الدين، وعليهم أداء الشهادة إذا

دُعوا لذلك، ولا يُصبكم الملك من كتابة الدَّين قليلاً كان أو كثيراً إلى مدته المحددة، فكتابة الدَّين أعدل في شرع الله، وأبلغ في إقامة الشهادة وأدائها، وأقرب إلى نفي الشك في نوع الدَّين ومقداره ومدته، إلا إذا كان التعاقد بينكم على تجارةٍ في سلعةٍ حاضرةٍ وثمنٍ حاضرٍ فلا إثم عليكم في ترك الكتابة حينئذٍ لعدم الحاجة إليها؛ لحصول التقابض عند البيع بلا تأخير، ويُستحب لكم الإشهاد عند البيع منعاً لأسباب النزاع، ولا يجوز الإضرار بالكاتب والشهود، ولا يجوز لهم الإضرار بمن طلب كتابتهم أو شهادتهم، ووقوع الإضرار على الكاتب والشهود أو منهم خروجٌ عن طاعة الله إلى معصيته. وخافوا الله واحذروا عقابه -أيها المؤمنون- بامتنال أو امره، واجتناب نواهيه، ويعلمكم الله ما فيه صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ومصالحكم. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمْنَتَهُ. وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ. وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ الرِّهَان جمع رهن، وهو شيء له قيمةٌ يضعه المدين عند الدائن ليضمن حقه، أي: وإن كنتم مسافرين وتداينتم ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم وثيقة الدَّين فرهنٌ يقبضه الدائن من المدين، فإذا قضى الدَّين أعطاه الرهن، وإن لم يقضه باع الرهن بقيمته فأخذ حقه بلا زيادة، ورد الباقي للمدين، فإن أمن الدائن المدين فلم يكتب وثيقة الدَّين ولم يأخذ منه رهناً فليؤدِّ المدين الذي هو أمانةٌ عنده، وليتق الله ربه بترك الخيانة أو المماطلة أو النقص من الدَّين، ولا تكتُموا الشهادة المبينة للحق والواقع، ومن يكتُم الشهادة فإنه فاجرٌ قلبه بسبب كتمان الحق الذي أخفاه في قلبه ولم يظهره مع الحاجة إلى إظهاره لمعرفة الحقوق، والله بما تعملون عليم، ومن ذلك علمه سبحانه بترك أداء الشهادة وكتماها، فالتَّركُ عملٌ يؤاخذ عليه الإنسان. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨١﴾﴾ أي: لله وحده ما في السماوات وما في الأرض خلُقاً ومُلْكاً وتديباً، وإن تُظهِروا -أيها الناس- ما في قلوبكم من الخير أو الشر أو تخفوه يعلمه الله، فهو يعلم ما في القلوب من الإيمان والخشوع والخوف من الله ورجاء رحمته ومحبته ومحبة عباده المؤمنين وتعظيم شريعته وإرادة الخير والنية الطيبة والخواطر الحسنة، ويعلم ما في القلوب من الكفر والنفاق والشك والكبر والحسد والحقد والعجب والرياء والظن السيئ وحب الشهوات المحرمة وإرادة الشر والنية الفاسدة والخواطر السيئة، وسيحاسبكم الله يوم القيامة على ما في قلوبكم من خير وشر، فيغفر لمن يشاء بفضلِهِ ورحمته، ويُعَذِّبُ من يشاء بعدله وحكمته، والله على كل شيء قدير، ومن ذلك قدرته على البعث والحساب والمغفرة والعذاب. ﴿أَمَّا الرَّسُولُ فَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٨٥﴾﴾ أي: آمن

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل إليه من ربه من القرآن الكريم والسنة المبينة للقرآن، والمؤمنون من أصحابه وأتباعه آمنوا كذلك بالقرآن والسنة، كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه التي أنزلها الله على رسله، وآمنوا بجميع الرسل، قائلين: لا نفرق بين أحد من رسل الله، فليسوا كاليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وقال المؤمنون من الصحابة وأتباعهم: سمعنا - يا ربنا - ما أمرتنا به ونهيتنا عنه، وأطعناك بفعل الواجبات وترك المحرمات، فالعلم قبل العمل، فقولهم: { سَمِعْنَا } علم، وقولهم: { أَطَعْنَا } عمل، وقالوا: نسألك - يا ربنا - أن تغفر لنا تقصيرنا في بعض الواجبات، ووقوعنا في بعض المحرمات، فنحن لا نزكي أنفسنا، ومهما استقمنا على طاعتك نعترف لك بذنوبنا، وإليك وحدك مصيرنا في الآخرة، فلا مفر لنا من البعث والحساب، فنحن نرجو رحمتك، ونخشى عذابك. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: لا يوجب الله على الإنسان إلا ما يطيق من الأعمال، فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة، ولا مشقة لا تُطاق في دين الإسلام، ومن ذلك: العفو عن حديث النفس والوساوس التي لا يسترسل معها العبد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ))، فمن عمل خيراً فله ثواب عمله كاملاً بلا نقص، ومن عمل شراً فعليه إثم لا يحمله عنه غيره، وعلم الله سبحانه المؤمنين هذا الدعاء العظيم ليستجيب لهم: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا فتركنا واجباً أو فعلنا حراماً غير ذاكرين، أو أخطأنا في اعتقاد أو فعل أو قول بلا قصد منا لمخالفة الحق ولا تعمد للمعصية، والنسيان هو الذهول عن الشيء، والخطأ هو مخالفة الصواب من غير قصد المخالفة، وهو يشمل من أخطأ جهلاً أو متأولاً، ربنا ولا تُكَلِّفْنَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ثِقَالاً مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّوَاحِي يَشِقُّ عَلَيْنَا وَلَا نَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِهِ كَمَا كَلَّفْتَ الْيَهُودَ بِالتَّكْلِيفِ الثَّقِيلِ، وَشَدَّدْتَ عَلَيْهِمُ الْأَحْكَامَ بِسَبَبِ ظَلْمِهِمْ وَفَسَقِهِمْ، رَبَّنَا وَلَا تُقَدِّرْ عَلَيْنَا مَا لَا نَطِيقُهُ وَلَا نَصْبِرُ عَلَيْهِ كَتَسَلُّطِ الْكُفَّارِ وَالظَّالِمَةِ، وَالْفَقْرِ الْمُدْقِعِ، وَالْأَمْرَاضِ الْمَزْمِنَةِ، وَالْعِشْقِ، وَالْمَسِّ، وَالسَّحَرِ، وَالْجُنُونِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ الشَّدِيدَةِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَكَذَلِكَ لَا تُقَدِّرْ عَلَيْنَا مَا لَا نَطِيقُهُ وَلَا نَصْبِرُ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَعَذَابِ النَّارِ، رَبَّنَا وَتَجَاوَزْ عَنْ ذُنُوبِنَا فَلَا تَعَاقِبْنَا عَلَيْهَا، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا فَاسْتَرْتَهَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِهَا، وَارْحَمْنَا فِي حَيَاتِنَا وَعِنْدَ مَوْتِنَا وَبَعْدَ مَوْتِنَا وَفِي آخِرَتِنَا، أَنْتَ وَلِينَا وَنَاصِرُنَا فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا وَأَحْوَالِنَا، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَجَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ. روى مسلمٌ في صحيحه

وعبد الرزاق الصنعاني وابن جرير الطبري في تفسيريهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: { وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ } [البقرة: ٢٨٤] غَمَّت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غمًّا شديدًا، وقالوا: يا رسول الله هلكننا، إنما كنا نؤخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا))، فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة: ٢٨٦] قال الله: ((قَدْ فَعَلْتُ))، { رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا } [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: ((قَدْ فَعَلْتُ))، { رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: ((قَدْ فَعَلْتُ))، { وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: ((قَدْ فَعَلْتُ))، قال ابن عباس: (فكانت الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل، فَتَجَوَّزَ لَهُمْ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأُخِذُوا بِالْأَعْمَالِ). ويؤخذ من هذه الآية أنه لا يأثم الناسي ولا المخطئ، فمن نسي إزالة النجاسة من ثوبه فصلى فصلاته صحيحة، ولا إعادة عليه، ومن نسي فأكل أو شرب وهو صائم فليتم صومه، ولا قضاء عليه، ومن أخطأ فأكل بعد طلوع الفجر في رمضان وهو يظن أنه لا يزال في الليل فصومه صحيح، ولا قضاء عليه، ومن اجتهد في القبلة فأخطأ فصلاته صحيحة، ولا إعادة عليه، والقاضي والمفتي إذا اجتهد فحكم أو أفتى فأخطأ لا إثم عليه، ونص العلماء على أنه لا يُنقض حكم القاضي في المسائل الاجتهادية التي ليس فيها نصٌّ لا معارض له ولا إجماع، وأنه لا إثم على من أخذ بقول عالم يثق بعلمه إذا أخطأ في مسألة اجتهادية، وأن الإقدام على مفسِّقٍ مع الجهل يمنع كونه مُفَسِّقًا، ولا يأثم فاعله؛ لأنه متأول، ولم يتعمد الخطأ، وذكر بعض العلماء أن المتأول الذي يقصد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يُكفِّر ولا يُفسِّق إذا اجتهد فأخطأ، سواء في المسائل العقديّة أو المسائل العمليّة، قال الله تعالى: { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب: ٥]، وفي الحديث المشهور: ((إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ))، فلا يأثم من أخطأ جهلاً أو متأولاً، مجتهداً أو مقلداً لعالمٍ حيث يسوغ التقليد، وراجع في هذه المسألة رسالتي: فقه الخطأ، ورسالتي الأخرى: حكم العذر بالجهل، والله أعلم.